

عبدالقادر القط

شعر

ذكريات تتساب

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

عَبْدُ الْقَادِرِ الْفُط

ذَكَرَايَاتُ شَبَابٍ

مكتبة مصر
شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصير للطباعة
٣٧ (٦) شارع كامل مدني البغداد

مقدمة

كان من حق هذه القصائد أن تنشر منذ خمسة عشر عاماً ،
فقد نظمتها بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٣ . ثم سافرت إلى الخارج قبل أن
يتاح لي نشرها في ديوان كامل ؛ فلما عدت بعد خمس سنين كان قد طرأ
على إدراكي للحياة تحول كبير جعلني أحس بشيء غير قليل من الغربة
نحوما تضمنته قصائدي من عواطف لم أعد قادراً على الشعور بها بمثل ما فيها
من حدة وقوة انفعال . ولكنني مع ذلك لم أفقد رضائي عنها من حيث
تعبيرها ونجاحها في تصوير تلك العواطف الجياشة التي كانت تملأ عليّ
صباي ، ولم أستطع أن أقطع بيني وبينها تلك الصلة النفسية الوثيقة التي
تقوم دائماً بين الأديب وعمله ، ولا أن أفقد ما أحمل لها من حب ،
وهي جزء عزيز من شبابي بقلقه وحيرته ، وعجزه وقوته .

وهكذا ظلت فكرة نشرها تراودني من حين إلى آخر فتبلغ بي
الحماسة في بعض الأحيان أن أدفع بأصولها إلى الناشر ، ثم يستبد بي التردد
والإشفاق فأنتني عما اعتزمت . وقد أكد هذا التردد في نفسي أن لونا
جديداً قد ظهر في الشعر العربي ، فنبذ هذا الإطار الذي كنت أنظم فيه ،
وتلك التجارب الذاتية التي صورتها في شعري القديم وأحدث بهذا ثورة

فنية كبيرة كنت في أول الأمر من أكثر الناس اقتصارا لها ،
وأحسست أنه ينبغي لي أن أترث حتى أرى ما يكون من أمر هذا
المذهب الجديد ، وحتى لا يكون هناك شيء من التناقض بين نشرى
لقصائدى القديمة وبين حماسى للشعر الجديد .

ولكن الشعر الجديد لم يلبث أن تحول — فى معظمه — عن
الطريق الذى كان قد بدأ السير فيه ، فغلبت على أسلوبه نثرية مسرفة ،
وأتخذ لنفسه — على حدائقه — قوالب يرددها الشعراء فى معظم قصائدهم ،
وطغى على مضمونه جانب الدعاية المباشرة للقضايا السياسية والأحداث
الاجتماعية دون نظر كبير إلى الجانب الفنى ، وخذع كثير من الشعراء
الناشئين بما يبدو فى طريقة نظمه من سهولة ظاهرية ، فأولعوا به وغمروا
الصحف والمجلات بقصائد فجة قبل أن يكتمل لهم ما ينبغى من ثقافة
لغوية وفنية ونضج فى الفكر والعاطفة . وهكذا أدرك كثير ممن آزرُوا
هذا الشعر فى أول الأمر أنه — رغم النماذج الناجحة التى قدمها
الموهوبون المخلصون من أصحابه — لم يزل فى دور التجربة التى قد تنتهى
به إلى مسالك وأشكال جديدة ، أو ترده إلى شيء من القصد والاعتدال .
وبدأ الناس يشكون فى قدرته على أن يخلف الشعر القديم فيصبح اللون
الأوحد فى شعرنا الحديث .

ومع أنى أعتقد أن النماذج الناجحة من هذا الشعر قد أثبتت أنه
يستطيع — حين تتاح له الملكات الكبيرة المخلصة والثقافة اللغوية

والفنية الواعية — أن يكون أداة للتعبير الشعري الصادق العميق ،
فقد بدأت أحس كما أحس غيرى من الناس بأن أمامه طريقا طويلا
شاقا لا بد أن يجتازه قبل أن تتأصل مقوماته ، وتنضج أساليبه وصوره ،
ويصبح الإطار الأول لشعرنا الحديث .

لذلك زال ما كان يستبد بى من تردد فى نشر هذا الديوان، وأخذت
أعيد النظر فى أمر الشعر القديم لأرى إن كان حقا — كما يقول أصحاب
المذهب الجديد — عاجزا بطبعه عن أن يخرج تجربة الشاعر فى صورة
متكاملة الأجزاء دون أن يحول بينه وبين ذلك ما فيه من قيود القافية
وإتساق الشطور .

وأصحاب المذهب الجديد يأخذون على القصيدة العربية فى أشكالها
التي تخالف شكل مذهبهم ، اعتمادها على وحدة البيت وتفكك أجزائها
وتكلف الشاعر فيها لكثير من الإطناب اللفظى الذى يفرضه عليه
ما للبيت من طول محدد وشطين متساويين . ولا شك أن فى القصيدة
العربية القديمة كثيرا من هذه الصفات التي نراها الآن عيوباً يجب
أن يتنزه عنها الشعر . ولكننا نخطئ حين نظن أن تلك الصفات
فى قصائد كبار الشعراء القدماء خضوع — فى كل حال — لقيود القافية
والوزن ، وعجز من هؤلاء الشعراء عن أن يعبروا عما فى نفوسهم من عواطف
وأفكار تعبيراً دقيقاً متكامل الجوانب . فالحق أن ما نراه فى قصائدهم
من تلك الصفات إنما هو تعبير صادق عن طريقة إدراكهم لما يعرض

لهم من تجارب ، والصفات التي لا نجبها في ذلك الشعر ليست في الحقيقة عيب الشكل القديم في ذاته بقدر ما هي تصوير لطريقة إدراك خاصة تختلف عن طريقة إدراكنا الحديثة للحياة والأشياء .

وقد أوردت الأنسة « نازك الملائكة » في مقدمتها القيمة لديوانها « شظايا ورماد » بيت المتنبي :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه

حريصا عليها ، مستهماً بها صبا

وأبانت ما تكلفه الشاعر في رأيها لكي يتم البيت ما ينبغي له من طول محدد وقافية خاصة ، فقالت إن المعنى يتم عند قوله « حريصا عليها » أما قوله « مستهماً بها صبا » فليس إلا تكلمة للوزن ووصولاً إلى القافية . وما أظن أن المتنبي قد أحس بأنه تكلف شيئاً من هذا ؛ وإنما عبر تعبيراً صادقاً عن إحساسه بفكرته بالطريقة التي كانت تقتضيها روح العصر وطبيعة الحياة وأسلوب الناس حينذاك في إدراك الأشياء والتعبير عنها . وليس ما في البيت من إطناب إلا انعكاساً لما كان في حياة هؤلاء الناس من فراغ ، وما كان في إحساسهم من حدة ، وما كان في طريقة معيشتهم وما كلهم وملبسهم وعمارتهم من زخرف و « إطناب » . وما نأخذه الآن على القصيدة القديمة من تفكك أجزائها واعتمادها على وحدة البيت ليس بدوره إلا انعكاساً لطريقة القدماء في إدراك الأشياء إدراكاً

جزئياً ليس فيه هذه النظرة الكلية الشاملة التي تطبع تفكيرنا وإحساسنا في العصر الحديث .

وإذا كان الإطار القديم ليس عاجزاً بطبعه عن أن يصور تجارب الشاعر تصويراً ناجحاً ، فليس ما يمنع إذن من أن يستخدمه الشاعر الحديث في شكله المتطور الذي يناسب حياة الشاعر وطبيعة اللغة في عصره . ولا شك أن الشكل القديم قد تطور تطوراً كبيراً على يد الشعراء المحدثين ، فانتفت عنه الألفاظ الغريبة والصور التقليدية ، وأصبحت أبياته أكثر تماسكاً واتحاداً . وقد تجاوز الشعراء — كما هو معروف — هذا الشكل التقليدي المحض إلى القصيدة التي تعتمد على وحدة المقطوعة والقافية المتغيرة ، فأتيح للشاعر مجال أرحب للتعبير عن تجربته ، وقلت القيود التي تحد من قدرته على الإبداع ، واستطاع كثير من الشعراء أن يأتوا في هذا الإطار بروائع يعتز بها أدبنا الحديث .

لذلك أعتقد أننا لا ينبغي أن نرفض بعض شعرنا المعاصر لمجرد أنه قد نظم في أشكال تخالف « الشعر الجديد » ، بل لا بد أن نحكم عليه بمقدار ما في مضمونه من قيم ، وما في صياغته من فن ، وأن نقرأه بما يجب لقراءة كل شعر من حسن الظن والاستعداد النفسي الطيب لتلقى ما يريد الشاعر أن ينقله إلينا من عواطف وأفكار . صحيح إن بعض شعرائنا المعاصرين ممن ينظمون في هذا الإطار القديم لا يزالون يتبعون الطريقة التقليدية المحضة بكل مقوماتها دون اعتبار لنا طراً على اللغة وأساليب

الشعور والتفكير من تطوّر كبير ، ولكن ذلك لا يجوز أن يصرّفنا
عما قد يكون في شعر غيرهم من أعمال جميلة ناجحة تمثل روح العصر
وطبيعة الشاعر في أسلوب حتى جديد . ولست أزعّم أن شعري من هذا
الطراز ، ولكنني أضعه أمام القارئ ليرى فيه رأيه وإن كنت أستطيع
أن أقول إنني التزمت فيه غاية الصدق في التعبير عما كنت أحس به
حينذاك . وأذكر في هذا المقام أني حين قلت في قصيدة « رؤيا » :

قد بكينا وأمنا أن نرى
والأسى في وحشة الظلماء يجلو
دمعة في الليل ما أروغها
تتلوى مثلما ينساب سيل
مثل لدع النار قرّت في فمي
ولها في وجهي المحرور غلّ

طاف بخاطري ما يزخر به الشعر التقليدي من إغراق في الحديث
عن الدموع والبكاء ، فأشقت أن يؤخذ قولي على أنه مجرد اتباع لتلك
السنة المألوفة ، وأحسست بضرورة الاعتذار عن هذا الانفعال العنيف
فأتبعت الأبيات السابقة بهذين البيتين :

لا تخلها بهرجا من شاعر
يملاً القول من الزيف ويغلو

فلقد تعلم يا طيفي أني
ما ذكرت الدمع في شعري قبلُ

وقد يظن بعض القراء أن هذا الدفاع عن الأشكال التقليدية لا ضرورة له ، لأن أحدا لا يرفضها كل الرفض ، أو يقول بأنها لم تعد صالحة للبقاء إلى جانب « الشعر الجديد » . لكن الحقيقة أن كثيرا من شعراء الشكل الجديد وأنصاره يرون هذا الرأي ، كما يعرض معظم الناشئين عن القوالب القديمة مسaire منهم لروح التطور من ناحية ، وفرارا مما تتطلبه تلك القوالب من ثقافة لغوية وفنية واسعة من ناحية أخرى . وهذا الدفاع إذن ليس موجها إلى الذين لا يزالون يؤمنون بصلاح تلك الأشكال التقليدية وجمالها ، وإنما قصدت به أن أنبه الناشئين إلى أنه من الخير لهم أن يبدؤوا بالطريقة القديمة في أحسن صورها وأكثرها ملاءمة لروح العصر ، ثم يتطوروا بعد ذلك تطورا طبيعيا إلى الشكل الجديد بعد أن تكون قد تهيأت لهم أسباب النجاح فيه . والحق أن النماذج الناجحة من هذا الشعر لا تتأني إلا لمن راض ذوقه اللغوي والفني رياضة طويلة بالقراءة في الشعر العربي القديم والحديث ، وممارسة الأشكال التقليدية بما فيها من قيود تفرض على الشاعر أن يولي فيه كثيرا من الجهد والعناية ، وتكسبه القدرة على أن يسيطر على اللغة ويستخدمها بكل ما لها من إمكانيات . وهؤلاء الناشئون في حاجة إلى هذه الثقافة

الفنية الكبيرة ، لأن الفرق بين روح الشعر والنثر في الشكل الجديد
خيطة دقيقة لا يفطن إليه إلا من أوتي الحس المرهف والإدراك السليم
لروح اللغة العربية وأساليبها المختلفة . ولست بذلك أدعو إلى أن يظل
الشعراء مرتبطين إلى الأبد بهذه الأساليب القديمة ، ولكنني أعتقد
أننا لا يمكن أن نقطع صلقتنا بها قبل أن يصبح لشعرنا الجديد تراث
ناضج ضخم يستطيع الناشئ أن يصقل به ملكاته ، ويستمد منه
ويبنى على أساسه .

هذا من حيث شكل الديوان ؛ أما مضمونه فيدور معظمه حول
تجارب عاطفية مما يعرض لكل شاب في مطلع صباه . وهي تجارب
يغلب عليها الشعور بالحيرة بين مثالية الشباب وواقع الحياة ، وتتسم
بكثير من الإحساس الحاد بالحرمان والتفكير القلق في المستقبل .

وقد قامت في مجتمعاتنا من الظروف والمشكلات منذ أن نظمت
هذه القصائد ما تطور بالشعر العربي والأدب عامة إلى الواقعية ، وأصبح
الأدباء الواقعيون لا يرضون كثيرا عن الشعر الذاتي الذي يتحدث فيه
الشاعر عن عواطفه الخاصة بصورة لا ترتبط فيها بجذورها الاجتماعية
ومظاهرها الإنسانية الشاملة . ولا شك أن هؤلاء الأدباء على جانب
كبير من الحق في موقفهم من الشعر الذاتي ، ولكنهم مع ذلك يظهرون
كثيرا من هذا الشعر حين لا يرون في تصويره الحاد لعاطفة الحب

إلا تعبيراً عن أحاسيس فردية خالصة لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلات المجتمع . فالحق أن الشعراء الرومانسيين في تعبيرهم عما يلقون في الحب من أسى وقلق وحيرة لا يصوّرون مجرد شعور فردى محض في موضوع عاطفي واحد ، وإنما يعبرون عن موقفهم من الحياة والمجتمع بوجه عام ويتخذون من المرأة مرآة يعكسون عليها ما يشعرون به من الضياع والفشل في مجتمع لم يبلغ من التقدم حداً يتيح لهم أن يحققوا ما يراود نفوسهم المتطلعة من طموح ، ويمنح إحساسهم المرهف ما ينتهي به إلى الشعور بالطمأنينة والرضى . وهم يتخذون من الحب وسيلة إلى هذا التعبير ، لأنه تجربة حيوية تصادف كل إنسان على نحو غريزي ملح ، وتتلور فيه معظم القيم الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية في حياة الناس . ولو لم يكن الأمر كذلك لما أمكن مثلاً أن نفسر إصرار شاعر مثل ناجي على المضي حتى آخر حياته في مذهبه الرومانسي ، وشعره المسرف في العاطفة ، بما فيه من تقديس للمرأة غير طبيعي عند من كان في مثل سنه وظروفه الاجتماعية التي كان لا بد أن تهيب له كثيراً من الاكتفاء العاطفي في هذه الناحية .

وسيرى قارئ هذا الديوان أن موقف الشاعر من الحياة بوجه عام يشيع في معظم قصائده حتى ما كان منها في الظاهر خالصاً لعاطفة الحب . فهو يبدأ بقصيدة عنوانها « قلق » تصور حيرة الشاعر أمام مسالك الحياة المتشعبة وإحساسه بما يدور في نفسه من عواطف وآمال مختلطة مضطربة

لا يدري طبيعتها على وجه التحديد ، ولا يعرف كيف يكون السبيل
إلى تحقيقها . والشاعر مشغول بأمر المستقبل ، تارة يراه شيئا مجهولا
مطويا في ثنايا الغيب يعشقه ويخشاه فيقول :

أسدلتُ في محرابه الحُجبا
وسما به ما شاء حرمانى
وعشقت خلف ستوره الغيبا
ولحت عند علاه سلطانى

ويعبر مرة أخرى عن ارتباط موقفه من الحب بموقفه من الحياة
تعبيرا صريحا فيقول :

تسامى وتيهى واخطرى في غمامة
من الوهم أن يقلع دجاها تبددى
فما عشقتك النفس إلا علاة
عن الأمل المنشود في ظلمة الغد
وما العيش إلا خفقة قدسية
لطلعة مُشقى أو لمقدم مُسعد

ويقول مرة ثالثة :

قد تركنا اليوم للضمّ العُتاه
وتركنا الغد للغيب الضنين

وتشبهنا بماضينا فتاه

في ضباب من عذاب وشجون

مرة رابعة يقول :

كل ما قد مضى فللعدم الطاغى

يزجى وغيننا أسراراً

وقصارانا بين ماض وآت

نخلسات من الحياة قصاراً

وتارة تغلب عليه روح التفاؤل والإيمان بالمستقبل ، وبقدرة الشباب

على أن يصنع مستقبله بيده كما يشاء فيقول :

يا فتنتى لا ترهبى الغيب الخبيء ولا دجاه

هو صنع أيدينا نكاد إذا أردنا أن نراه

غرس من الأفراح والأتراح والسوى ثراه

نلقى به فى يومنا ونذوق من غدنا جناه

تهب الحياة لنا غداً من مثل ما نهب الحياة

ومن خلال حديث الشاعر عن الحب يمضى إلى الشك فى كثير

من القيم الاجتماعية التى تحول دون أن يحقق ما يراوده من طموح

ورغبة ملحة فى السعادة والاستمتاع بالحياة . وسيرى القارى شيئاً من

هذا فى قصيدة « هم الناس » التى يصور الشاعر فيها توزيعه بين ما خلقه

الناس في نفسه من ضمير هو خلاصة القيم الاجتماعية والأخلاقية، وبين
نزعتة إلى التحرر والانطلاق فيقول :

توهمت أنى قد خلصت من الورى
فإذا بهم . مما تجنّ السرائرُ
إذا قلت غابوا عن عياني تراحوا
على من الجرح العميق وبادروا
وزفت على قلبى الملوغ ضجيجهم
وقهقه صوت من ضميرى ساخر
أريد وصوت الناس فى يريدنى
على غير ما أهوى فكيف أداور ؟
تحيّرت يا ليلى لا العقل قادر
فيسحق أهوائى ولا القلب قادر

وقد عبرت عن هذا الإحساس بعد ذلك على نحو أوضح فى قصيدة
« انطلاق » و اتخذت من الراعى رمزاً للضمير الذى يلح على الشاعر
أن يخضع لما تعارف الناس عليه من أوضاع ، ورمزت بالشاة إلى نفس
الشاعر الثائرة فى رغبتها أن تكسر كل ما يكبلها من أغلال . وقد
أفصحت عن هذا الرمز فى آخر مقطوعة من القصيدة فقلت عن تجربة
الشاة مع السيل ، سيل الحياة :

خاضت إليه وزاحمت بقوى موثقه قواه
القاع يجذبها قهوى ثم تنشلها ذراه
في القاع إحساس وفوق الماء إحساس سواه
بوركت يا سيل الحياة جريت في عنف الحياه !

وقد نظمت هذه القصائد في أواسط الحرب العالمية الثانية حين
كانت جنود الحلفاء تملأ القاهرة ، والسياسة المصرية تتعثر بين ممالأة
الانجليز وتملق الأمانى الوطنية ، والحرب تلقى ظلالها السود على الحياة
وتثير في نفوس الناس كثيراً من الشكوك حول مستقبل الانسانية ،
والغلاء الذى لا عهد لمصر بمثله يثقل كواهل الشباب ويسد الطريق
أمام طموحهم ، فكان من الطبيعى في تلك الظروف القاسية أن يحس
الشاعر وأمثاله بالقلق والحيرة ، ويشغلوا أنفسهم بأمر المستقبل ،
ويتذبذبوا إزاءه بين اليأس والرجاء ، وبين التفاؤل والتشاؤم . ولم تكن
مشكلات المجتمع قد اتضحت بعد لهؤلاء الشباب على نحو يخلق عندهم
وعياً ناضجاً بها ، ويرسم لهم الطريق إلى حلها أو التغلب عليها ، كما كان
تسلط المستعمر والطبقة الحاكمة يحول دون أن يقوم فى نفوس الأدباء
من الشباب مثل هذا الوعى الذى يمكن أن يتجه بأدبهم دفعة واحدة
إلى الواقعية الصريحة . وهكذا اتخذ الشعراء الرومانسيون من الحب ، كما
قلت ، موضوعاً يعكسون عليه موقفهم من الحياة والمجتمع وإن لم يفعلوا
ذلك بالطبع عن إرادة واعية ، بل بصورة تلقائية وجدانية .

على أن بنور التطور الاجتماعى والسياسى الضخم الذى طرأ على المجتمع العربى بعد الحرب كانت تتفتح حينذاك فى نفوس هؤلاء الشعراء من حين إلى آخر فى ومضات شعرية فيها كثير من الإدراك الاجتماعى والسياسى السليم . وسيرى القارىء فى قصيدة « لن أنام » مثالا لهذا اللون الواقعى ، فيه دعوة إلى الكفاح ، وإيمان بانتصار الشعب فى صراعه ليحقق لنفسه حياة حرة كريمة .

ومن مظاهر الوعى الواقعى فى هذا الديوان أن الشاعر قد ضاق فى نهايته بأحلامه الرومانسية المهوومة ، وبما يحس به من عجز وحيرة أمام مشكلات الحياة ، وصوّر ذلك كله فى قصيدة عنوانها « وماذا بعد ؟ » جاء فى بعض مقطوعاتها ما يمكن أن يعد ثورة على المفهوم السائد حينذاك لطبيعة الشاعر كما فى قوله مثلا :

شباب تائه حائر

يوارى جده العائر

ويهتف : هكذا الشاعر

فليت الشعر يهجرنا

وليت الفن يحفونا

وقوله :

كنى يا قلب إجمالا

فهذا العجز قد طالا

ولسنا بعد أطفالاً
وما تجدى رؤى الحالم
لدى ست وعشرينا

على أننا لا ينبغي مع ذلك أن نضيق بما قد يكون في بعض إنتاجنا
الشعري من ذاتية ونعدها انفصالا عن واقع الحياة ومشكلات المجتمع ،
فإن العنصر الذاتى شىء ضرورى لكل شعر حتى ما كان منه بعيداً
في ظاهره عن شخصية الشاعر وتجاربه الخاصة . فعلى الشاعر دائماً أن
ينمى شخصيته ويروض إحساسه الذاتى على إدراك الحياة من حوله
بطريقته التى تميزه عن غيره من الشعراء ، وتضفى على شعره أصالة لاغنى
عنها لكل فن كبير . ولن يتأتى له ذلك إلا إذا تدرج من التجربة الذاتية
إلى التجارب العامة ، وحرص حتى في تصويره للموضوعات التى لا تتصل
بنفسه اتصالاً مباشراً على أن يلونها بلونه الخاص الذى يدل على كيان
إنسانى مستقل . ولست أعنى بذلك أن يعتمد الشاعر مخالفة الآخرين
في معتقداتهم وعواطفهم ، ولكنى أريد له أن ينتهى إلى ما يؤمن به
من آراء من خلال اقتناعه الشخصى ، لا إنسياقاً وراء ما قد يشيع في بيئته
من مذاهب اجتماعية أو فنية . ولا شك أنه إذا كان شاعراً ذا بصيرة
صادقة ووعى اجتماعى سيتفق في نظراته مع كثير غيره من أحرار الشعراء ،

ولكنه مع ذلك سيتناول موضوعاته من زوايا ووجهات نظر خاصة به ،
فلا يجيء شعره مجرد شعارات مذهبية أو ترديدا لقوالب فنية مبتذلة .
ومن الملحوظ أن معظم « الشعر الجديد » لا يحرص كثيراً على هذا
الجانب الذاتى ، بل يظن أصحابه أن عليهم جميعاً واجباً محتوماً أن يعبروا
عن كل مناسبة سياسية أو اجتماعية تعرض فى مجتمعهم ولو كانت
بعيدة عن اهتمام بعضهم أو مستعصية على اتجاهاتهم الفنية . ولعل ذلك
هو سر تلك القوالب المكررة التى اتخذها الشعر الجديد على حدائته ،
وسر ما يفتقده القارئ من شخصية معظم هؤلاء الشعراء فيما يقرأ من
أشعارهم فلا يكاد يتعرف على شاعر من طريقة نظرتة الخاصة للأمر
أو أسلوبه المعروف فى التعبير عنها . ولو أخلص هؤلاء الشعراء لأنفسهم
لجاء شعرهم مصوراً لكل مظاهر بيئتهم ومشكلاتها على نحو متكامل
لا تتأثر فيه المناسبات بملكاتهم جميعاً ؛ ولن تعدم الموضوعات
الاجتماعية والسياسية الكبيرة فى هذه الحالة من يعالجها من الشعراء
بطبيعة استعدادهم الشخصى وميولهم الخاصة . فليس من ضير أن يكون
فى بعض إنتاجنا من حين إلى آخر بعض الألوان العاطفية والنظرات
الذاتية ما دام هذا الإنتاج فى مجموعه متكاملاً فى تناوله لجوانب الحياة
المختلفة فى المجتمع الذى نعيش فيه . وعلينا أن ندرك أن لكل شاعر
قدراته النفسية والفنية المتميزة التى تصرفه إلى الاهتمام بما يتناسب معها

من تجارب وموضوعات ، فلا نبني حكماً مثلاً على شاعر عاطفي بمقدار إهماله للمشكلات الاجتماعية الكبيرة أو التفاته إليها إلا إذا أردنا أن نقيسه بغيره من الشعراء من حيث وضعهم العام . أما في قراءتنا لشعره العاطفي فينبغي أن نحكم عليه بحسب توفيقه أو فشله في هذه الناحية وحدها ، فلا نحاسبه على ما لم يكتب ، بل على ما كتب .

وكنت قد نشرت قصيدة « انطلاق » في مجلة الآداب البيروتية ، وحدث أن علق الأستاذ محمود العالم في العدد التالي على ما نشر في ذلك العدد من شعر فقال عن تلك القصيدة :

« إن الخاصية العامة لشعر الدكتور القط أنه من حيث المضمون فاقد لهدف محدد وإن كشف عن جهد دائم للوضوح والاستقرار . ولكنه سامان ، ملول ، قلق ، متعلق برؤيا بعيدة غائمة يتوقع منها معجزة الخلاص . وهذا مما يشيع في شعره أحياناً مسحة تفاؤلية ولكنها غائمة كذلك . وتعتبر قصيدته « انطلاق » استقطاباً لموقفه الشعري في حدود معرفتي به . ولقد ذكرتني القصيدة أولاً بقصة مشهورة لألفونس دوديه هي « عنزة مسيو ساجان » . أما انطلاق الدكتور القط فانطلاق طيب مستسلم ، مندفع نحو أفق ولكنه مطموس المعالم ، غير واضح القيمات . وانطلاقه يحمل جانبا من الدون كيشوتييه ، لأنه لا يستبصر بالأبعاد الموضوعية إلا من خلال اندفاعه الانفعالي الخالص . ولقد نبخ

الدكتور القط في بناء الطبيعة الخارجية التي يتحقق فيها انطلاقه ، نجح في إشراكنا في تجاربها البصرية والسمعية والشمية ، وفي الإحساس بهولها ؛ إلا أن رمزية الحدث حدثت من مدى هذه التجارب والأحاسيس . والدكتور القط يتمسك بالصياغة التقليدية ، بالبيتية المقلدة ، والرتابة في عدد أبيات المقطوعة الشعرية ، مما يجعل لبلاغته طبيعة زخرفية تفقد الكثير من صورته الرائعة حيويتها الدافقة . إن الطاقة الشعرية الكبيرة للدكتور القط يتنازعها عاملان : الأول حيرته في تحديد موقف إنساني واضح ، والثاني صياغته التقريرية التي تثقلها بلاغة زخرفية . ولكنه شاعر متمكن حقا من تعبيره الأسلوبى وصوره البلاغية التي يبرز بها وجدانه القلق الملول » وقد أجيبت عن هذا النقد بمقالة نشرت في عدد تال (مايو ١٩٥٨) من مجلة الآداب رأيت أن أثبتها هنا بنصها ، لأنها تناقش كثيرا من القضايا الأدبية الهامة في شعرنا الحديث :

« لست أعنى بهذا المقال رداً على ما وجهه الأستاذ محمود العالم إلى شعري من نقد بقدر ما أريد أن أتحدث عن مشكلة من مشكلات الأدب العربى المعاصر يكتب عنها النقاد كثيراً في هذه الأيام ، ويبرزونها في صورة تبلبل نفوس منشئى هذا الأدب ، وتسبب لهم قلقاً شديداً ينحرف بأدبهم في كثير من الأحيان عما ينبغى له من أصالة وصدق . تلك المشكلة هى غاية الأدب وما ينبغى أن يتضمنه من قيم إنسانية خاصة تخدم المجتمع

وتدفع به إلى الأمام . ولا شك أن تضمن الأدب لهذه القيم لا يمكن أن يكون موضع خلاف بين منشى الأدب وناقديه ، ولكن حقيقة هذه القيم هي التي تثير ذلك الخلاف الشديد . فالأستاذ العالم يرى أن تكون غاية الأدب المشاركة في كفاح الشعب والتعبير عن مشكلاته بحيث يكون للأديب هدف « محدد » ، وهو كغيره من المتحمسين لهذه الدعوة يسقط من اعتباره تلك الألوان من الأدب التي تبدو في ظاهرها ضعيفة الارتباط « بالمشكلات الاجتماعية » التي يبدو أنها تعبر عن تجربة ذاتية فردية .

أما عن دور الأدب في التعبير عن مشكلات الشعب فإن ذلك مرتبط أشد الارتباط بتطور تلك المشكلات ووضعها في البيئة والعصر اللذين يعبر عنهما الأديب . والمعروف أن المجتمع دائم التطور من نظام إلى نظام ، وفي كل مرحلة قائمة توجد بذور المرحلة التالية . وما تزال تلك البذور تنمو ، وما يزال النظام القائم يشيخ حتى ينهار انهياراً تاماً ويأخذ مكانه النظام الجديد . لذلك كانت المعركة بين القديم والجديد حول القيم الاجتماعية المختلفة إيذاناً بأن التطور من مرحلة إلى أخرى قد أوشك أن ينتهى بانتصار الجديد . والأديب الموهوب يدرك إلى حد كبير حقيقة هذه المعركة ويشارك فيها وينحاز دائماً إلى الجديد ، وبذلك يعجل بتطور المجتمع . ولكن إدراكه لتلك الحقيقة لا يمكن

أن يكون من الوضوح والجلال بحيث يمثل كل عناصر المستقبل الذي لم يولد بعد أو ينسلخ كلية عن القيم التي نشأ عليها ولا يزال يعيش بها . فأدبه في تلك المرحلة إرهاص بالنظام الجديد ولكنه لا يمكن أن يعبر عنه تعبير الأدب الذي يولد في ظل ذلك للنظام بعد أن يتم التطور وتتضح المفاهيم الاجتماعية الجديدة . ولكي ندرك ما ينبغي أن يكون عليه الأدب العربي في هذا العصر يجب أن نتساءل أولاً : في أي مرحلة تطورية يمر مجتمعنا الآن ، وما نصيب النظم الاجتماعية القائمة من الشيخوخة والشباب ؟ وفي رأي أن المجتمع العربي يعيش الآن في ظل نظام قد شاخ منذ زمن بعيد ، ولكن شيخوخته قد امتدت امتداداً شاذاً لظروف خاصة أهمها الاستعمار عامة والتركي بوجه خاص . لذلك طالت المعركة بين القديم والجديد طويلاً غير عادي ، ومرت بمراحل مختلفة كانت نتيجة كل منها تحطيم بعض القيم القديمة أو إضعافها في نفوس الناس . ولكن القديم لم ينهزم بعد ، فما زلنا نحيا بمزيج من القيم بعضها قديم وبعضها جديد ، بل إن كثيراً من هذا الجديد لم يتأصل في نفوسنا بعد ولم يتعد المظهر الخارجي إلى الاقتناع النفسي العميق . وإحساس الناس بمشكلاتهم لذلك لا يزال في الغالب ضرباً من السخط المبهم والقلق الغامض ، وإن كان قد جاوز ذلك عند بعضهم لظروف اجتماعية أو ثقافية خاصة إلى درجة من الوعي والفهم تدفعهم إلى تغيير تلك الظروف التي يسخطون عليها . والأديب العربي فرد من هذا المجتمع

يتأثر بظروفه وقيمه المختلفة ، وينعكس ذلك على ما ينشئ من أدب .
لهذا كان لا بد لكل هذه العناصر أن تظهر في أدبه إن كان يعبر تعبيرا
مخلصا صادقا عن تجاربه وأحاسيسه ، وكان لا بد لأدبه أن يكون مزيجا
من الرومانسية التي تمثل هذا السخط المبهم والقلق الغامض ، والواقعية
التي تعبر عن الوعي الذي يلتصق في نفس الأديب ولكنه لا يتيح له
رؤية واضحة للمستقبل ، لأنه لا يستطيع كما قلنا أن يدرك إدراكا تاما
عالمه لم يولد بعد ، أو ينسلخ انسلخا تاما عن القيم التي نشأ عليها ولا يزال
يعيش بها . لذلك كانت دعوة النقاد إلى أدب واقعي محض ضربا من
التعسف ودعوة الأدباء إلى تزييف أحاسيسهم ، واختلاق تجارب
لا يحسون بها إحساسا قويا واضحا يخلصها من كل آثار الرومانسية
الكامنة في المجتمع . وكيف يستطيع الأديب أن يكتب أدبا واقعيا
عن المرأة مثلا تنتفي عنه العاطفية المفرطة ، والخيال الجامح في مجتمع مازال
الرجل فيه يذبح أخته أو أمه ذبح الشاة دفاعا عن « عرضه » ويفخر
بما فعل ؟ ! . لقد تحررت المرأة من حجابها ولكن هذا التحرر كما قلت
لم يتعد عند كثير من الناس المظهر الخارجي إلى الاقتناع النفسي العميق .
لذلك كان لا بد للأدب الذي يتحدث عن المرأة أن يكون مزيجا
من العاطفية والواقعية . وكيف يستطيع الأديب أن يكتب أدبا واقعيا
محضا عن الطبقات الكادحة وكثير من هذه الطبقات لم يحس بعد
إحساسا واعيا بمشكلاته ، ولم يندفع بعد إلى كفاح منظم في سبيل التحرر .

بل كيف يستطيع الأديب أن يفعل ذلك وهو لم يشارك في مثل هذا الكفاح مشاركة جدية تفرض موضوعاته فرضاً على مشاعره .

وليس من ضير على الأدب العربي أن يظل محتفظاً بشيء من الرومانسية ما دامت تلك الرومانسية تعبيراً صادقاً عن جانب مهم من نفوس منشئيه ومنتدوقيه . بل إن إغفال ذلك خطر على الأدب في هذه المرحلة ، لأنه يغلق نفوس الناس دونه ما داموا لا يزالون يحيون بعواطفهم إلى حد كبير ، فإذا أراد الأديب أن يبت في أدبه دعوة واقعية في مثل تلك الظروف فلا بد أن يغلفها بشيء من العاطفية يستجيب لها قارئوه ، وهو إن كان صادقاً مع نفسه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، لأنه هو أيضاً فرد من المجتمع يعيش بقيمه ومفاهيمه . وكما « لم يكن الأدب الرومانسي في القرن التاسع عشر أدباً رجعياً ، بل كان في جوانب كثيرة منه أدباً ثورياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى » كما يقول الأستاذ العالم ، فكذلك يكون الجانب الرومانسي الصحيح من أدبنا المعاصر . وإنكارنا لبعضه إذن لا ينبغي أن يقوم على مجرد أنه رومانسي ، بل لأنه يتسم بصفات تجعل رومانسيته غير صالحة . على أن الواقعية نفسها تختلف درجاتها بحسب إيغال المجتمع في التطور واستقرار قيمه الجديدة . فعندما كتب « فلوير » رائد الواقعية الفرنسية في القصة روايته « مدام بوفاري » قامت حولها ضجة أدبية كبرى ، فقد تحدث في صراحة وجدية عن الخيانة الزوجية

ووصف وصفاً مطولاً انتحار الزوجة وآثار السم في جسدها وما عانته من آلام بشعة قبل موتها ، وعدّ ذلك منه واقعية جريئة تخرج عما ينبغي للأدب من « لياقة » . وكذلك فعل « إبسن » رائد المسرح الواقعي حين كتب مسرحيته « بيت الدمية » و « الأشباح » ، وكان هجر بطله المسرحية الأولى لزوجها وأولادها مثاراً للجدل والاستنكار ، كما كان كذلك حديث المؤلف في صراحة عن الأمراض التناسلية الوراثية في المسرحية الثانية . ولكننا الآن على ضوء ما انتهت إليه الواقعية من تطور لا نكاد نعد هذه الأعمال أدباً واقعياً إلا من حيث وضعها التاريخي في خط التطور الأدبي . وشتان بين واقعية « فلوير » « وإبسن » وواقعية الأدب الأوروبي في هذا العصر . ذلك لأن المجتمع الجديد قد اتضحت مشكلاته وبنات معالنه فانعكس ذلك على أدبه وفنه .

ودعوة نقادنا إلى الواقعية الصارمة الملحة ، فيما نخيل إلى ، مظهر لاقتناع عقلي ثقافي قبل أن يكون إيماناً وجدانياً عميقاً . وهو في أغلب الأحيان تأثر بما يقرأون من الأدب الأوربي الواقعي الذي يعبر عن مجتمعات سبقتنا شوطاً كبيراً في التطور . ويظهر ذلك بوضوح حين يتجاوزون النظريات إلى التطبيق ، فتراهم في أغلب الأحيان يحكمون على النصوص الأدبية بعقولهم فيخلطون بين الجيد والردىء حسب ما يمليه إقتناعهم الذهني .

وقد أحدث الإلحاح في هذه الدعوة ، كما قلت في مطلع المقال ، بلبلة خطيرة في نفوس الأدباء جعلت كثيراً منهم يتنكرون لأنفسهم ويتكلفون التعبير عن تجارب لم يعانونها ، ويحتذون نماذج فنية لا يحسنون الكتابة فيها . فقد أصبح الحديث عن القرية مثلاً شائعاً في الشعر الحديث . ولكن هؤلاء الشعراء لا يرون في القرية عن عمد إلا « الشيخة الضريرة تدب على العصا » ولا يسمعون إلا « أحاديث الجدة العجوز » إلى آخر تلك الصور . وإن هم كتبوا عن المدينة فليس فيها إلا سعال البغايا والمصدورين وألوان الحرمان والتشرد . وهم يكتبون عن الحرب قصائد أغلبها من صنع خيالهم كموضوعات الإنشاء التي يطلب فيها إلى التلميذ أن يصف « يتيماً في يوم عيد » . ولو قد ترك هؤلاء الشعراء أنفسهم على سبيلها ، واستجابوا لوحى تجاربهم الخاصة ، لتأتى لهم من ذلك شعر فيه مثل هذه العناصر الإنسانية مع صدق التعبير وقوة الإحساس والبراءة من التكلف . فليس الأدب الذي يصور البؤس والظلم والتعاسة هو وحده الأدب التقدمي ، بل إن كثيراً من ألوان الأدب التي ترسم ما في الحياة من جمال وأمل تنتهي إلى هذه الصفة كذلك بما تبثه في نفوس متلقيها من معاني التفاؤل والقوة والتطلع إلى الاستمتاع بهذا الجمال . ولن يشعر إنسان ببؤسه وفاقته إلا إذا أوتى الحس الذي يدرك قيمة السعادة والرفاهية إدراكاً يدفعه إلى الانتفاض على بؤسه وفاقته ، كما أن تذوق الجمال في

ذاته متعة نفسية كبرى تنفي عن الحياة ما فيها من سأم وملال ، وتسمو
بإنسانية الفرد فتجعله أسرع استجابة لنداء الخير ، وأكثر تطلعا إلى الرقي
والتقدم . وليس معنى ذلك أننا نغض من قدر الأدب الذي يعبر
عن البؤس والمظالم ، أو ننكر دوره الكبير في نهضة المجتمع ، ولكننا
نريده أدباً صادقا من وحي تجارب الأديب وبيئته .

وعلى ضوء ما ذكرت أحب أن أناقش رأى الأستاذ العالم في شعري
وهو يبدأ بقوله : « إن الخاصية العامة لشعر الدكتور القط أنه من حيث
المضمون فاقد لهدف محدد وإن كشف عن جهدائب للوضوح والاستقرار .
ولكنه سأم ، ملول ، قلق متعلق ، دائما برؤيا بعيدة يتوقع منها معجزة
الخلاص . وهذا ما يشيع في شعره أحيانا مسحة تفاؤلية ولكنها غائمة
كذلك » . أما إن شعري فاقد لهدف محدد فهذا صحيح ، إن كان المراد
أن يلزم الشعر خطأ ضيقاً مستقيماً لا يجيد عنه ؛ فالنفس البشرية
ليست من الآلية بحيث تسير قدما دون التواء أو تعرج أو نظرة إلى
وراء أو عن يمين أو شمال ، وهي دائما تكتسب تجارب جديدة وتواجه
مشكلات متعددة ، فهي لذلك دائما التطور والتجدد . وما أظن أحداً من
الناس يستطيع أن يحدد هدفه من الحياة تحديداً دقيقاً جامداً غير قابل
للتغير . والأستاذ العالم نفسه يقول : « وليس معنى هذا أن كل شاعر له
اتجاه عام جامد ، بل إنه يخضع لمنحنيات متعددة من التغير على المدى

الطويل من حياته التعبيرية . ولست أدري بعد قوله هذا : لماذا يطلب
أن يكون لي هدف « محدد » ؟!. ومع ذلك فإن لي هدفاً وإن لم يكن
جامداً . وفي شعري تفاؤل ولكنه غير غائم . وكيف يكون تفاؤلاً غائماً
مثل قولي من قصيدة « عرافة » .

يا فتنتي لا ترهبي الغيب الخبيء ولا دجاه
هو صنع أيدينا نكاد إذا أردنا أن نراه
غرس ، من الأفراح والاتراح والسلوى نراه
نلتقى به في يومنا ونذوق من غدنا جناد
تهب الحياة لنا غداً من مثل مانهب الحياة .

وكيف يكون شعراً لاهدف له مثل قولي من قصيدة « لن أنام » :

ها قد بلغت قمة قد كان صعباً مرتقاها
شبوا على أعلى البروج لهيبها وارعوا لظاها
مدوا بأيديكم لمن في السفح يصعد في حماها
وتجمعوا من حولها دنيا يعذبها طواها
تلقى على أكنافها من غير مسألة قراها
شعباً ومأمنة وعزة أنفس تعلو الجباها

ولعل كلمة قصيرة عن القصيدة الأولى يمكن أن تبين حقيقة الخلاف
بينى وبين الأستاذ العالم ، فهو فيما يخيل إلى غير راض عنها ، لأنها لم

ترتبط بدعوة جماعية شاملة ، بل كانت حديثا إلى فتاة تستطلع غيبها
في بقية شرابها . لذلك كان تفاؤلها في رأيه تفاؤلا غائما . أما أنا فقد
أخذت موضوع الفتاة وسيلة لكي أصور في القصيدة جوا خاصا رأيت
فيه عاطفة ينساق القارئ معها إلى تلقى هذا التفاؤل . والفن كما هو
معروف يعتمد على الإيحاء لا على القول الذهني المباشر . ولن ينفذ
الإيحاء إلى النفس إلا إذا كانت في حالة استغراق بعدها لتلقى ذلك الإيحاء ،
وهذه هي الرومانسية المتقدمة التي عنيتها في صدر المقال ، والتي تعبر تعبيرا
صادقا عن المرحلة الاجتماعية التي نجتازها . ويتصل بذلك ما يقوله عن شعري
من أنه « سامان ملول قلق متعلق برؤيا غائمة يتوقع منها معجزة الخلاص »
وأنا سعيد ، إذ استطعت أن أنقل هذا الإحساس إلى الأستاذ العالم فإني
بذلك أعبر عن تجربة العصر والبيئة التي أعيش فيها . فلست وحدي
القلق الملول ، بل إن ملايين من الشباب العربي يعانون هذه التجربة
ويحسون بقلق غامض لا يدركون كنهه لما في حياتهم من دواعي
الكبت والفتل ، ولكني لم أكتف بمجرد التعبير عن هذا القلق ، بل
« تعلق برؤيا غائمة أتوقع منها معجزة الخلاص » . وتلك أول مرحلة
في سبيل التحول من الرؤيا الغائمة إلى الرؤية الصادقة المبصرة إذا تمسكنا
مع التطور الطبيعي للمجتمع في كفاحه نحو مستقبل أفضل .

والأستاذ العالم معجب أشد الإعجاب بمنهج الشعر الحديث الذي

« لا يتمسك بالصياغة التقليدية ، بالبيتة المقلدة والرتابة في عدد أبيات المقطوعة » وأحب أن أصرحه بأني لا أقل إعجاباً بالجيد من هذا الشعر، ولكن لا أراه الوسيلة الوحيدة للتعبير الشعري الموفق، ولا أرفض ما عداه من الشعر لمجرد البيئية المقلدة والرتابة في عدد أبيات المقطوعة . والشعر الجديد مازال باعتراف الأستاذ العالم يمر بدور التجربة وهو « ضعيف في التعبير والصياغة » كما يقول ، وهذا أمر خطير . فالأستاذ العالم يريد أن « يكسر رقبة البلاغة العربية » التي تعنى في الغالب بالصياغة والزخرف . لكن البلاغة الجديدة مع ذلك تستحق « كسر رقبتها » هي الأخرى . فهي لم تزدد على أن نقلت العناية من الصياغة إلى المضمون ففعلت ما كانت تفعله البلاغة القديمة من فصل غير طبيعي بين اللفظ والمعنى . والأدب ، كما يقرر الأستاذ العالم — حين يتحدث عن النظريات دون التطبيق — كل متمسك لا يتجزأ: إما أن يكون أدباً أو لا يكون . والشعر الذي يمكن أن نصفه بأنه « ضعيف في الصياغة والتعبير » لا يمكن أن يعد شعراً . فليس المراد من الشعر مجرد تسجيل للأفكار ، وإنما يراد به نقل تجربة الفنان إلى قارئه بحيث تنفذ إلى نفسه فينفعل بها وتستقر في وجدانه فتؤثر على نظرتة إلى الحياة وإدراكه للأشياء . وفرحة النقاد الذين يدعون دعوة الأستاذ العالم بذلك الشعر الفاشل وإن عبر عن مضمون إنساني فرحة زائفة . فما كان الفن يوماً مجرد عرض للحقائق والأفكار . وقد يمكن أن ندرس هذا

الشعر على أنه مقدمات لتطور فني جديد ، ولكن بعد أن يتم هذا التطور ويتوفر لدينا من النماذج الجديدة الناجحة قدر كبير تكون دراسة تلك المقدمات معه تأريخاً لذلك التطور وليست تمجيداً للشعر الفاضل في دور الانتقال . أما أن يتجاوز إعجاب الأستاذ العالم بهذا الشعر حداً يرفض معه كل ما يكتب الشعراء من شعر يتسم بالبيتية المغلقة والرتابة في عدد أبيات المقطوعة فتعنت لا نقره . إن هذه الأطر الفنية التي لا ترضى الأستاذ العالم لم تتعد حياتها في الشعر العربي أكثر من ثلاثين عاماً بعد معركة ضخمة بين القديم والجديد لا يزال أصحابها أحياء بيننا ، وما زال كثير من أنصار المدرسة الكلاسيكية المنهزمة يكتبون شعرهم بالأسلوب القديم غير معترفين بما حدث من تطور ، بل إن قدراً كبيراً جداً من الشعر الأوربي — حتى عند أكثر الشعراء تجديداً — ما زال يكتب في البيتية المغلقة ونظام المقطوعة . ولست أدري كيف تكون البيتية المغلقة والرتابة في عدد أبيات المقطوعة داعياً إلى الزخرف . أفهم أن يكون ذلك في بعض الأحيان حائلاً دون التعبير المتكامل إذا لم يكن الشاعر متمكناً من لغته ، صادقاً في أدائه . أما أن يكون سبيلاً إلى الزخرف فأمر غير مفهوم . على أن الزخرف في ذاته ليس عيباً إذا كان هدفه إبراز إحساس الشاعر في صورة قوية مؤثرة . ونحن نلجأ إليه في حديثنا العادي — غير واعين — كلما انقلنا بما نقول أو أردنا تأكيد مايجول في نفوسنا من خواطر . أما إذا كان الزخرف تغطية لضحالة

الاحساس أو تفاهة الموضوع فذلك عيب لا شك فيه . والبساطة مع جمالها لا تصلح للتعبير عن كل الأحاسيس والصور ، فهناك موضوعات لا بد للشاعر أن يستعين فيها بشيء من الخيال الجامح والتعبير المنمق ليرزها في أسلوب قوى مؤثر . وفي رأبي أن أصحاب المدرسة الجديدة من الشعراء يغنون غلوا كبيرا في هذه البساطة فيجىء شعرهم في كثير من الأحيان غير قادر على النفاذ والتأثير . ويخيل إلى أن الدعوة إلى هذه البساطة المفرطة وليدة الرغبة في أن يكون الشعر المكافح مفهوماً عند أكبر عدد من القراء . وهي رغبة نحمدها لهؤلاء النقاد ولكن الشاعر مع ذلك لا حيلة له في هذه المشكلة ما دام يكتب بلغة لا يحسنها كثير من القراء . فهو لكي يكتب شعراً ناجحاً لا بد أن يستغل كل إمكانيات اللغة التي يكتب بها ، وموهبته وثقافته هما اللتان تحددان موقفه من بعض الأساليب والألفاظ .

وفي مقام الإشارة إلى لغة الشعر أحب أن أعتذر إلى القارئ عما سيصادفه في هذا الديوان من ألفاظ قليلة تعتبر الآن غريبة شيئاً ما على الشعر الحديث ، وقد لا يفهمها من لم يتتقف ثقافة عميقة في الشعر العربي القديم . من ذلك قولي « وأسى أرق حديثها جرح » والأمى جمع أسوة أى ما يتأسى به المرء . ومنها كلمة « مهّمه » التي وردت في قصيدة « في طريق الحياة » ومعناها الصخراء . ولعل أوضح مثل لهذا قولي في مطلع تلك القصيدة :

في طريق من أتى الأنضاء والصرعى صواه

والصوى علامات الطريق ، ولقى الأنضاء أى الأجساد المطروحة
الملقاة فى الطريق بعد أن سقط أصحابها من الإعياء والجهد .

و بعد ، فما قصدت بهذه المقدمة أن أدافع عن شعرى ، فإني أعلم
أن إحساس القارئ وفكره هما المقياس الأوحد فى النهاية للحكم على
العمل الفنى ، ولن تجدى المقدمات إلا فى بيان بعض جوانب العمل
التي قد تعين القارئ على هذا الحكم ؛ وإنما أردت بها أن أناقش
بعض القضايا الهامة التي تثور فى هذه الأيام حول القديم والجديد .
وأرجو ألا أكون فى هذه المناقشة قد اتخذت من الشعر الجديد موقفاً
يبلغ حد التعصب ، فليس أسوأ من أن يقف الناقد فى سبيل التجديد
والتطور ، أو يعوق خطأ العاملين على أن يلحق شعرنا بركب الشعر
العالمى ، فيشارك مشاركة فعالة فى نهضة المجتمع ، ويساير روح الحياة الحديثة
فى أسلوبه ومضمونه . وما اعتقدت يوماً أن الشعر يمكن أن يجمد أبداً
الدهر على قوالب معينة لا يتعداها . وإذا كان ذلك قد حدث بالفعل
للشعر العربى أمداً طويلاً فلأن المجتمع العربى كان حينذاك مجتمعاً
راكداً يخضع لنظم اجتماعية واقتصادية ثابتة لا يكاد يعثر فيها من التغيير
إلا أيسره مما يتمثل فى عدل حاكم أو ظلمه ، أو زوال أسرة حاكمة وقيام
أخرى ، أو غير هذا من مظاهر لا تمس صميم الحياة . وحين نقض ذلك
المجتمع عنه غبار الركود بدأ الأدب يخطو خطى واسعة سريعة نحو التقدم ،
فظهرت فيه ألوان جديدة لم يعرفها من قبل كالمسرحية والرواية ،

وتطورت الأشكال القديمة من نثر وشعر في هذه الفترة القصيرة تطورا لا يمكن أن يقاس إليه ما تم إبان تلك العصور الطويلة كلها . والناظر في أمر النثر العربي الحديث مثلا يرى أنه قد بعد بعدا كبيرا عن الأساليب التقليدية القديمة حتى ليشك المرء في قدرة القدماء على فهم بعضه لو أتيح لهم أن يقرءوه . ومع ذلك فنحن لا ننكر عليه هذا التطور ، ولا نرميه بالخروج على أساليب اللغة العربية وتقاليدها ، ولا نقف منه موقفنا الحذر من الشعر ، لأننا نمارسه كل يوم في حياتنا العملية فنحس بضرورة ما ندخه عليه من تجديد ، بل لا نكاد نشعر قط بهذا التجديد وهو يتم بطريقة تلقائية غير واعية في معظم الأحيان .

أما الشعر فإننا ننظر إليه على أنه قوالب فنية محضة ولا يمارس نظمه إلا القليلون ، ولا نقرؤه إلا بين حين وآخر بأذواق قد نشئت في المدارس على الشعر القديم وحده . ومن هنا لا نتقبل في بسر ما يطرأ عليه من تطور ، ونقيسه دائما إلى ما نعتقد أنه الصورة النهائية الحاسمة للشعر العربي . وتتضح هذه الحقيقة حين نذكر أن الأشكال الحديثة للقصيدة العربية ، تلك التي تعتمد على المقطوعة والقافية المتغيرة ، قد أصبحت الآن أشكالا مقررة معترفا بها ، يدافع عنها خصوم « الشعر الجديد » باعتبارها ممثلة للشعر القديم ، مع أنها في الحقيقة كانت منذ أمد قصير لا يزيد على أربعين عاما تعد ثورة على القديم ، ولم تخرج إلى

الوجود إلا بعد معركة عنيفة طويلة بين القديم والجديد . وإذا كانت
قد استطاعت أن تأخذ مكان الشعر التقليدي رغم تأصله في حضارتنا
ونفوسنا تأصلا عميقا فليس ما يمنع أن يخلفها هي نفسها بعد حين
جديد آخر .

ومع ذلك فإن هذا التطور ينبغي أن يتم على نحو طبيعي صالح ،
فلا تنقطع فيه الصلة فجأة بين القديم والحديث ، لأن حياتنا في كثير من
مظاهرها لا تزال وثيقة الصلة بمراحلها التاريخية السابقة . ولا يجوز لنا
أن نمجد أى تطور مهما يكن شأنه ، بل لا بد أن يكون قائما على
أسس سليمة تضمن له البقاء والنضج .

وإني أرجو أن يجد بعض الناس في هذا الديوان تصويرا صادقا
لعواطفهم إن كانوا لا يزالون يمرون بمثل تلك المرحلة العاطفية التي كنت
أجتازها حين نظمته ، أما الآخرون فإني أرجو أن يروا فيه تعبيراً
عن فترة خاصة من حياة الشاعر ، وطور معين من أطوار شعرنا
العربي الحديث ؟

عبد القادر الفط

القاهرة في ١٠ ديسمبر ١٩٥٨

فتلق

أى إحساس بصدري يتنزى
أى أخلاطٍ بنفسى تضطرب !
ومعانٍ أوسعت روحى وخزاً
وأمانٍ كالأتون المتهب !

ثائراً يزفرُ من تحت الدخان
لستُ أدرى ما الذى يوقد ناره
غيرَ أنى أكتويه كلَّ آن
وأذگى من دم القلب أواره

لستُ أدريه . . . ولكنى أحسّه
فى سـيـاطٍ من حنينِ قانياتٍ
ويجنبي مستطار طالِ حدسُه :
أى ماضٍ يشتهيهِ . . . أى آتٍ ؟

أى شيء فى حياتى قد فقدتهُ ؟
أى معنى من زمانى أبتغيه
كما خيل لى أنى وجدته
قذف التنورُ بالنيران فيه

كل شيء فى حياتى كالضباب
لست أدرى ما مداه إن قصدتهُ
وطريقى ذو دروبٍ وشـعـاب
يقتضينى كلُّ دربٍ لِمِ سلكته

إن أردتُ المجدَ طافتُ بي رِوَاهُ
ألفُ رؤيا يغتلى فيهنَّ رِيبِي
أو أردتُ الحبَّ أوَلتني دُماه
حَـيْرَةً تغتال ما يهفو بقلبي

ليس مجداً أو غراماً ما أريدُ
ليت شعري أي شيء أفقدُ ؟
أي شيء ! كلُّ شيء في الوجود
آه لو جُمِّع يوماً فاتحدُ !

ظمًا يشوي لهاني حرُّه
فإذا قاربتُ ينبوعًا خمدُ
ونداء من رغبني سحره
كلما ملتُ إليه لم أجِدُ

ها هنا رَوْحٌ ولكنِّي مَلُولٌ
ها هنا راحٌ ولكنِّي قلقٌ
كلُّ قصرٍ تحته سُفْعُ الطُّلُولِ
كلُّ صبحٍ فيه أسداف الغسقِ

سَأْمٌ ينفث في الكون السَّامِ
ليس يرضى عن مكان أو زمنٍ
ينشد الجِدَّةَ حتى في الظلمِ
ليس يعنيه قبيح أو حسن

أى شيء في حياتي قد فقدته ؟
أى معنى من زمانى أبتغيه !
كلما خيَّل لي أنى وجدته
قذف التَّنُورُ بالنيران فيه

فِي طَرِيقِ الْحَيَاةِ

فِي طَرِيقٍ مِنْ لَقَى الْأَنْضَاءَ وَالصَّرْعَى صُورًا
وَفَضَاءَ لَمْ تَعَانِقَ أَرْضَهُ يَوْمًا سَمَاءَ
مُفْرَغًا تَرْتَجِعُ الْأَبْصَارُ حَسْرَى عَنْ مَدَاهِ
أَضْرَبَ الْأَرْضَ طَلِيحًا تَحْتَ أَعْبَاءِ الْحَيَاةِ
وَشَبَابٍ لَمْ يَمْتَعِ بِالشَّبَابِ

أَغْتَدَى فِي زَحْمَةِ الْأَطْمَاعِ مَشْدُورَةَ الرَّجَاءِ
وَأُرُودُ الْوَدَّ فِي دُنْيَا مِنَ الْوَدِّ خَلَاءِ
مَفْرَدَ الْقَلْبِ . . . وَلِلْقَلْبِ حَزِينٍ وَاشْتِهَاءِ
ظَائِمٍ الرُّوحِ . . . وَلِلنَّبْعِ بِأَسْمَاعِي غِنَاءِ
مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ . . . مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ

أغتندي في مهته الدنيا وما لي من رفيق
غير روحٍ سادر النجوى وقلبٍ لا يفوق
كلما أوغلتُ في القفر تراءتُ لي بروق
وامضاتُ بأماني كأطيف الشروق
بعد ليلٍ مدلهمٍ وضباب

طلما أدركتُ أن البرق خلّاب جهام
ورأيتُ القطرَ مجبوساً بأطباق الغمام
غيرَ أني كلما راودَ أجناني المنام
قذفت بي ظمائماتٍ من رغابي للأمام
ولقد يُنجى من اليأس السراب

أتخطي الصخر . . . لا عزمًا ولكني أسيرُ

وعلى السائر أنت يمضى وإن شق العبور
لم أعد أسأل ما الجدوى ولا أين المصير
ما سؤالي ؟ ! وفؤاد القفر مسلوب الضمير
ليس يصغى لسؤال أو جواب

في طريقى كم تراءت لى جنان وادعات
مقلات الدوح بالأثمار شتى ناضجات
يرفل الظل بها فى مسرح جمّ الشيات
ويميس النهر فى أعطافها رحب الجهات
بين أفوافٍ وأفوافٍ وغاب

كم رأيت عينيّ وكم قد حنّ للروضات قلبى
فتركتُ الدربَ مهجورا ونخلتُ الروض دربى

وَهَفَّتْ لِلْعَشْبِ أَقْدَامِي وَقَالَ الْجَهْدُ : حَسْبِي
وَرَفَعْتُ الْكَفَّ لِلَّهِ . . . أَقْضَى حَقَّ رَبِّي
مِنْ ثَنَاءٍ وَصَلَاةٍ وَمَتَابٍ

وَإِذَا بِالرُّوضِ قَدْ حَفَّتْ بِهِ جَنْدٌ عُنْتَاهُ
لَمْ يَبَالُوا حَرَمَةَ الْحَمْدِ وَلَا قُدْسَ الصَّلَاةِ
صَاحٍ مِنْهُمْ صَاحٌ : رَدُّوا عَنِ الرُّوضِ الْجَنَاهِ
أَغْرَيْبٌ مِلْكُنَا الْمَحْبُوبُ مِنْ بَعْضِ مَنْهَاهُ ؟ !
أَشْهَرُوا الْبَيْضَ وَهَزُوا لِلْحَرَابِ !

فَهَوَّتْ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ إِلَى الْأَرْضِ يَدَايُ
وَتَلَاشَى حَمْدِي الْمَبْتُورُ وَأَنْجَابَتُ رُؤَايُ
قَلْتُ : هَدَى الْحَرْبُ يَا قَوْمَ أُعِدَّتْ لِسَوَائِي

أنا منكم . طال في البيد ثَوَائِي وَسُرَائِي
كيف تلقون أخاكم كالذئاب ؟ !

قد صحبتُ الليل . . . والليل على البيد رهيب !
ونهاراً للحصى من قيظه العاتى وجيب
منحتنى البيدُ بلواها وَأَخَفَّتْ ما يطيب
من رُوءاء الفجر فى الشرق ومن سحر الغروب
لم أنل منها سوى قبض التراب !

يا صحابى روضكم ريان ممتد الظلال
لن تضيق اليوم بى سرحاته الفيح الطوال
فدعونى يلتئم جرحى . . . ولى بعد ارتحال
لن أقيم الدهر فيه وبجنبي ملال
يَخِزُ القلبَ إلى هذى الشباب !

يا صحابي ! . . . أيها الواغل لسنا من صحابك
إسع في قفرك ما شئت وهووم في شعابك
نحن من أصلاب مجد . . امض لسنا من ترابك
وإذا ما مسك الضر فكفكف من رغابك
واترك الدنيا لأرباب الرغاب

غشى الروض سكون ركد الأغوار أخرس
لا الغدير الوادع انساب ولا الزهر تنفس
ودجا الظل فحلت الظل في وجهي يعبس
وجرى في وهمي المحبول أن الريح تهس :
لست يا أفاق أهلاً للصحاب

قلت يا أقدامي الحسرى إلى دربك عودی

وتأمتني يا لهاتي من خيالي بالوعود
واصبري للظلم القاتل يفتال نشيدي
فعداً في روضتي العذراء يحلوني ورودي
وأرويكي من الشهد المذاب

روضتي العذراء في الربوة لم يطمت تراها
خلف هذي القفرة الجرداء قد طاب جناها
ضل عنها الناس واستخفي عن الناس شذاها
قلبي العامر بالأيمان يوماً سيرها
وسيرها وإن طال الغياب

أَنْتِ كَالنَّاسِ!

جفَّ الغديرُ وصوَّحَ الزهرُ
فآلآنَ لا سَكَنٌ ولا رَوْحُ
لم يبقَ إلا الفكرُ والشعرُ
وأسى أرقُّ حديثها جُرْحُ

لم يبقَ إلا لوعةُ الذكرى
وحطامِ آمالٍ وأحلامِ
ومناسِرٍ ومخالبِ حيرى
بين الرجاءِ وقلبي الدامى

وخيلكُ النشوانُ بالأممِ-

تتضحك الأقدار في فيه
سكرى بما أهرقت من وهمي
وحطمت من قدح أفديه

ومثالك المرسوم في خلدي
خزبان يرعش من مهاويك
يا ويحه ! أفنيت في يدي
ومحاه رجس من أيديك !

سـوَيْتُه رَوْحًا أَقْدَسُه
وتراه رَجْعَ قَرَارِهَا نَفْسِي
أَشْتَاقُه وَأَهَابُ الْمَسْهُ
وأريدُه فَيَخُونُنِي حِسِّي !

أسدلتُ في محرابه الحُجُبَا
وسمّا به ما شاء حرمانى
وعشقتُ خلف سُتوره الغيبا
ولحّتُ عند علاه سلطانى

قد قلتُ حين طلعتِ فى أفقى
بيضاء يغمر نورك الأفقا
قد غاب ليلُ الشجوع عن طرقى
وبدا الصباحُ يضاحك الطرقا

ألقيتُ أحزانى إلى أمسى
وزها بأول بسملة قلبى
ونسيتُ أول مرة نفسى

وهجرتُ آلامى إلى الحبِّ

وهجرتُ آلامى إلى أفقِ
يُنْفِي المومَ وينفح البشرَا
بأكرتهُ بجناحٍ منطلقِ
ورفعتُ فيه للهوى قصرا

قصرٌ تُشارفُ ساحه القممُ
سِحْرٌ وكلُّ فتونه أنتِ ! .
أن تسكنى تهامس النغمُ
ويموج فيه اللحنُ إن سرتِ

تتخطين وثوبك التبرى

بأدى الهيام بقـدك العاجي
ألوانه إشراقه الفجر
وحقيقه خفقات أمواج

تسرى بأنهارٍ مُسبَّحةٍ
تهفو إليك برُوحٍ مشتاقِ
سلسالهنَّ رفيفٌ أجنحةٍ
وتسيمهنَّ حديثُ عُشَّاقِ

وعلى الضفافِ مدلَّهٌ صادي
يأبى الورودَ لغيرِ سُقياكِ
شفتاكِ أشهى خمرِ الوادي
ونميره الرقراقُ نـجـواكِ !

أهفو لصوت جمالك الداعي
وأهابُ صمتَ جلالك السامى
فإذا أجبتُ نداءَ أطماعى
تتراعشُ الأستارُ قُدَامى !

وطلعتِ فالتمعتُ بك الدنيا
لمعَ الشعاعِ تسوقه الظلمُ
فجُرُّ كذوبُ النورِ لا يحيا
ومعِينُهُ الديجورُ والعدمُ

من أنتِ؟ ! ما أنتِ التى منحتُ
كأبى الرمادِ تألقَ المساسِ
من أنتِ؟ ! إنَّ الحجبَ قد رُفِعتُ
واحسرتا . . أفأنتِ كالناسِ !

مَلَيْتُ مِنْكَ الْعَيْنَ وَالسَّمْعَا
وَسَلَوْتُ عَشْقَ الْغَيْبِ وَالسِّرِ
فَإِذَا الرُّوَاهُ غَلَالَةُ الْأَفْعَى
وَإِذَا الصَّفَاءُ رَيْبَةُ الشَّرِ

شَفْتَاكَ لَا مَاءَ وَلَا خَمْرُ
أَسْطُورَتَانِ رَوَاهِمَا وَهْمِي !
وَحُطَّائِكَ لَا عَاجُ وَلَا تَبْرُ
وَيَحُ الْخِيَالِ . . . وَبَعْدَ مَا يرمى !

طَالَعْتُ مِنْهُ مِصْرَعَ النَّسْرِ
وَشَهِدْتُ فَتْكَ الرَّجْسِ بِالْقُدْسِ
فَضَمَمْتُ أَحْزَانِي إِلَى صَدْرِي
وَرَجَعْتُ مَغْلُوبًا إِلَى نَفْسِي

هيم الناس

أليلاى هزتنى للقياك خفقة
تثور بروحى كلما طاب سامر
إذا شعب القوم الحديث وهوموا
بكل طريق زينته الخواطر
ذكرت حديثاً منك تندى لحونه
معطرة الأصدقاء ، والحسن عاطر
ورحت أجيب الذكريات فأسكتت
لهاتى ذكرى ما تزال تخامر
إذا ساور التحنان قلبى تمللت
أفاع من الشك الدفين تساور !
أليلاى هذا موطن العذر فاسمعى

لمستوحشٍ طَمَّتْ عليه الدياجر :
عرفتُكِ والآلامِ تفرى حُشاشتي
وبيني وبين العاديات أواصر
وحوِّلى من الصمت الكئيب مفازةً
تعاوى بها ماضٍ وزمجر حاضر !
عرفتُكِ مِمِّرَاحِ الأغاريدِ طلقةً
كما عاد موفوراً إلى العشِّ طائر
لديكِ ثوى من كلِّ شيءٍ نقيضه
يناصر كلُّ ضدهِ ويؤازر
عليكِ من الأضواء أبيضُ فاتنٌ
وفيكِ من الأظلالِ أسمرُ آسر
تقدِّسُ فيكِ الحسنُ والحسنُ طاهرٌ
وعربدَ فيكِ الدلُّ والذلُّ فاجر !
عرفتُكِ فانبجبت عن القلب غممةٌ

أضواء دياجيتها خيال مغامر
جسور على الآفاق . ما طاف حالم
ببعض مجاليه ولا حام كاسر
ملأت شغاف النفس حتى كأنما
إليك طواها عن دنا الناس ساحر
فأنت لها في مجمع الخلق شرعة
تضائل غيبها ما تلوك الضائر
رضاك هو الحل الذي تستبينه
وإن تسخطى فالحق خزيان صاغر !
تجلت لروحي منك دنيا جديدة
وأسدل دون العاديات ستائر
ونخلت للماضي الشقي كآبتي
ورحت إلى يومى السعيد أبادر
إذا استبقت يوماً لأفقى غمامة

أو ابتدرت يوماً إلى البوادر
فذكرُك في الأحران بُشْرَى وفرحةً
وفي التّيبِ والديجور سمع وناظر . . .

عشقتك لم أحفل بما قال قائل
ولم تسترني عن هواك الزواجر
وما اعتقدتك النفس يوماً حبيسة
لنسك به تلغو العقول القواصر
وكيف ؟ وللحسن الفتى رغائب
حواكم في الغيد الحسان قوادر
يحمم منها ثائر الرأس جامع
ويهدر منها رائع الموج زاخر ! . . .
ولكنّ صوتاً بين جنبيّ لهم أزل
أخافيتُ بالأوهام . . . وهو يجاهر :

أَتَعَشَّقُ مِنْ دُنْيَاكَ غِرًّا أَثِيمَةً
تُرَاوِحُهَا لِدَاتِهَا وَتُبَاكِرُ؟ !
تَصَامَمْتُ عَنْهُ بَعْضَ حِينٍ فِرَاعِنِي
بِصِيحَةٍ عَاوِيٍّ مَزَقَّتْهُ الْبُؤَاتِرُ
تَمَطَّى فَأَنْتُ فِي دِمَائِي جِرَاحُهُ
وِثَارُ فِقَرَّتْ فِي عُرُوقِي الْأُظَافِرُ !
تَوَهَّمْتُ أَنِّي قَدْ نَخَلَصْتُ مِنَ الْوَرَى
فَإِذَا بِهِمْ مِمَّا تُجْنُ السَّرَائِرُ
إِذَا قَلْتُ غَابُوا عَنْ عِيَانِي تَزَاحَمُوا
عَلَى مِنْ الْجُنْحِ الْعَمِيقِ وَبَادَرُوا
وَزَفَّ عَلَى قَلْبِي الْمَلُوعُ ضَجِيجُهُمْ
وَوَقَّهَهُ صَوْتُ مِنْ ضَمِيرِي سَاخِرُ !

هَمُّ النَّاسِ يَا لَيْلَى صَاغُوا ضَمِيرَنَا

على قلب مما يزيد الأكارب :
طلعنا على الدنيا بنفسٍ رضية
سواءً لديها في هواها المناظر
يُجاذبها جنحٌ من الليل حالك
ويفتنها ضوءٌ من الصبح باهر
إذا صفت الآفاق تهوى صفاءها:
وتبسم إن غامت عليها المواطر
تقدسُ في الطهر البتول سكونها
وتمضى إلى الخليل اللعوب تسامر
وتبسط كفيها إلى كلِّ هاتف.
ويدفعها شوق إلى الناسِ غامر
ولم تكُ تدري يومَ ذلك ما التقي.
ولا الغى . . . إلا ما تقول المشاعر
همُ الناس يا ليلى صاغوا ضميرنا

فأوفت بنا للنائرات الضمائر
عرفنا من الناس الغواية والتقى
وصاحبنا ناهٍ من الناس أمر
وقامت بنا للخير والشر ساحة
هوت بثراها للسلام منائر
غرامك في الأحشاء عاتٍ مسيطر
ورأيي في الأعماق غضبانٌ ثائر
ولى من هواك المرّ قيدٌ أحبّه
أخاف عليه همّتي وأحاذر
وأحنو عليه كما عَضَّ خاقتي
كما تشهَى عَضَّةَ الطفل عاقر !
هو الحب ياليلاي . . أنبلُ ما انطوى
عليه فؤاد أو تملّاه خاطر
قضيتُ ربيعَ العمر أرجو لقاءه

إلى أن تبدت من شتأى البوادر
فكيف أذود الدفء والقرء جائر
وكيف أخلى النور والليل عاكر؟!
هم الناس ياليلاي . . خَطُّوا مصيرنا
فمالت بنا للهاويات المصائر
أريد . . وصوت الناس فيَّ يريدني
على غير ما أهوى ، فكيف أداور
تجرت ياليلاي . . لا العقل قادر
فيسحق أهوائى ، ولا القلب قادر

عَرَافَةٌ

جلستُ تُسائلُ عن ضمير الغيب سُورَ شرايها
وتُجاذبُ الأيامَ بالإلهامِ سِتْرَ ضبايها
غابت عن الدنيا حوايها وعن أترايها
وسمت بصيرتها ورفقت فوق قيد ترايها
حيرى تبسّمُ للدروب إذا مضت لرغايها
ويضحج خافقها الصغيرُ إذا التوت بصعابها
في كفها من خوفها رجفٌ وفي أهدابها
يقتادها الأملُ الجميلُ لمستسرّ طلابها
خيردّها شكٌّ يغلفُ نبعها . بسرابها
ذهلتُ فأيقظها عطوفُ الصوت من أحبابها :

يا فتنى لا ترهبى الغيبَ الخبيءَ ولا دجاءَ
هو صنْعُ أيدينا نكاد إذا أردنا أن نراه
غرسٌ من الأفراح والأتراح والسلوى ثراه
نُلقي به فى يومنا وندوق من غدنا جناد.
تهبُ الحياةُ لنا غدا من مثل ما نهب الحياة!

ألقي الظنون إلى اليقين يجذُّ من أسبابها
هذى الحياة لنا ونحن اليوم من أربابها
تحيا بنا وشبابنا الريان نبع شبابها
نخشى الغيوب؟.. وما الغيوب؟ وما ظلام حجابها؟
هى ضلَّةُ الأوهام فى بيداء من أوصابها
أيامنا غُدْرٌ يفيض الغيب من تسكابها
عذباً إذا طابت وطاب الماء فى أكوابها

وَيَمُرُّ مَشْرَبُهُ إِذَا لَقِيَ الْقَذَى مِنْ صَابِهَا
هِيَ شِعْلَةٌ مَرْفُوعَةٌ فِي غَيْبِنَا نَسَى بِهَا
نَمَضَى إِذَا ضَاءَتْ وَنَحْبَطُ إِنْ دَجَّتْ فِي غَابِهَا

يَا فَتْنَتِي هَذَا الشَّبَابُ تَفِيضٌ بِالنَّعْمَى يَدَاهُ
دِفَاقَةٌ لَا الْيَأْسَ يَحْبِسُهَا وَلَا وَهْمَ الْعُنَاهِ
لَا تَعْبَسِي... وَدَعَى الزَّمَانَ الطَّلُقَ يَجْرِي فِي مَدَاهِ
وَدَعَى ابْتِسَامَتِكَ الطَّرُوبَ تُضِيءُ فِي هَذِي الشَّفَاهِ
تَعْنُ الْغُيُوبَ وَيَمْسَحُ الْمَاضِي عَنْ الدُّنْيَا أَسَاهِ

لن أنام

لا . . لن أنام وصحوتى لم تنفِ عن عيني قذاها
نفسى تبيت على شجى وأريد أعرف ما شجاها
إنى مللتُ عُلالة السلى وملتني رؤاها
لا . . لن أنام وللظلام بغرقتي كفتُ أراها
سأنير شمعتي الضئيلة ثم أسهر في ضيائها
وأبيتُ مرتفقاً بنافذتي تؤرقني صباها
وأراقب الدرب الملى بعصبة ثقلت خطاها
يمشون في حلق القيود وكلهم حرٌّ أباهـا
يتماطلون بعزيمة وقدت رءوسهم دماها
يتامسون على الظلام طريقة ناء مداها
ويشير رائدهم إلى القمم البعيدة في علاها :

يا رفقتى . . شدوا على أقدامكم وانسوا أذاها
هى خطوة أو خطوتان ويبلغ العانى رباها
أنى لأنسى فى طريقى ريجها وأرى سناها ! . .
سأظل أرقبهم وأرسل صيحتى يسرى صداها :
يا إخوتى لا تيأسوا ! . . لم يبق إلا منتهاها
إنى لأسمع أنه الأصفاذ قد خارت قواها . .
وأظل أرفع شمعتى والريج تعبت فى ذراها
من ها هنا يا رفقتى . . ألقوا القيود إلى تراها
ها أتم الأحرار بعد مذلة فصمت عراها
فتنفسوا ملء الصدر سعادة ورضى وجاها
واستأنفوا السير الحثيث لغاية باد هداها

ها قد بلغت قمة قد كان صعباً مرتقاها
شَبَّوا على أعلى البروج لهيبتها وارعوا لظاها

ستكون مقبسةً لمن لقيت مشاعلهم رداها
وتكون مأمنةً لقرور على البيداء تاها
مدّوا بأيديكم لمن في السفح يُصبح في حماها
وتُجمّعوا من حولها دنيا يعذبها طواها
تلقى على أكنافها - من غير مسألة - قراها
شعباً ومأمنةً وعزة أنفس تُعلى الجباها

سأظل مرتفقا بنافدتي تداعبني صباها
وأروح أرقب نجمة الأصباح تنهض من كراها
وأظل أحدها بالحناني لتعجل في سراها
حتى إذا طلع الصباح . . . وشاهدت نفسي ضحاها
وفتحت للنور المرقرق غرفتي . . حتى كواها
ورأيتُ مشرقةً الوضيء يضيء للدنيا خطاها
أطبقت أجفاني وقد سلّت هناةً قذاها

بعد عامين

في رُواء الضحى.. وقد زخر النُّور
وحلت رداءها الأزهارُ
وهفا في النسيم رُوحٌ عَبيرُ
شعّ منه الخيالُ والأسرارُ
وصفّت نحوه القلوبُ وأرخت
للرؤى من عنانها الأفكار...
لحت لي فجأةً فحار يقيني
واستراحت في حشها الأنظار
وتلاقى على فؤادي شجوا
وسرور وجـرأة وفرار
ومعانٍ مستبهمات حيارى
وادِّكارٌ يرده إنكار
ثم صحَّ اليقين وانبتق الماضي
وألقى طريقه التيار
وتجلّيت في الرّيع ربيعاً
أطلعتُهُ على الرّبي الأقدار

يا حياتي... لا تأخذيني برّبي
فليربي من الأسى أعدار
واغفري لحظةً جهلتك فيها
فبروحى من الشقاء دُوار
سلبتني بصيرتى ظلمُ الليل
وتربُّ على الضحى موار

وسكونٌ كأنه مبرد يفرى كيانى وهوة وعثار . .
وتغيرتِ فتنى . . واستتمت بعد عامين للشباب ثمأر
خلعت سحرها عليك الليالى ومشى فى صباك وجدّ مثار
وتزيتت كالعروس . . وفاضت بالمراح الخطى . . وخفّ الوقار
واستدارت على جبينك سُمرٌ ناعساتٌ عهدتها لا تدار
وتبدلتِ بالسوادِ رداءً نفتحته ضياءها الأسحار
هادىءً اللون . . كالغدير مساءً ذوبت فيه ظلها الأشجار
قد تغيرتِ فتنى . . فاغفرى لى شردانى وقلبك الغفار
لا تخالى أنى نكرتُك عمداً أو سلواً . . فما خبت لك ناراً!
لا وحبيك! . . ما طوانى ليلٌ دون ذكرى ولا علانى نهار!
قد سلكننا إلى العزاء فنونا واصطبرنا فما أفاد اصطبار
وحسبنا فيمن نلقى غناءً فعشقنا . . وطبعنا الإكبار
كم أقمنا من الرمال صروحا وشهدنا صروحنا تنهار

وكشفنا قلوبنا لبغايا تتلهى بحبنا ونفسار !
كلما بضّ من فؤادى جرحٌ أو حوانى فى طيّه إعصارُ
ذكرت روحى الكسيرة مغناك وحنّت لعشها الأطيّار
وتبلجت فى جنائى نُبلًا قدسيًا تهابه الأوزار
فإذا لفحةُ الجحيم سلام وإذا عصفهُ الرياح قرارُ
لا وحبّيك! .. ما طوانى لئيلُ دون ذكرى ولا علالى نهار

منذ عامين ها هنا .. كم وقفنا تتساقى بشجوها الأبصار
وبلونا من حبنا نبضات لم تدنّس جلالها الأفكار
خالصاتٍ لحسنا دافقاتٍ بوجود يُخيفنا فنحار
كم ركنا إلى الفرار .. فنادانا إلى لفحة الحبيب أوار
ونظرنا إلى السفوح بشوق فدعتنا للقمّة الأخطار ! ..
منذ عامين ها هنا .. كم تراءت لصبانا على الدجى أنوار
فنفضنا قلوبنا من أساها وازدهتنا بلحنها الأوتار

وأمانٍ نوؤمها مَطْلَعُ الصبَحِ ونمضي لشهدها نَشِيتار
لم تكن غيرَ آمِنِياتٍ . . . ولكن كم أُتِيحت في ظلِّها أوطار
وأديرت من الخيالِ كؤوسٍ لم يَشُبها من الحياة غُبار
وسمونا بسحرها ورواها لحياة تقصُّها الأسمار !

* * *

كل هذا الوجود كيف تلاشى واستقامت من بعده الأعمار
ومضينا . . . قد دُعرت لحظاتٍ عامرات وطمرت أنهار
وتلقت من الزمان سطورا حادثات يخطها المقدار !
أين ولي سرورنا وأسانا وانقياد لحبنا ونفسار !؟
واتحت من إحساننا خلجاتٌ قد غداها إحساننا الزخار
كل ما قد مضى فللعدم الطاغى يزجي . . . وغيبنا أسرار
وقصاراتنا بين ماضٍ وآتٍ خلسات من الحياة قصار

ميشال

طرقتُ بابي وقد أخلدتُ للأحلام دهراً
وانطوت نفسي وألقت دون دنيا الناس سترأ
طرقتُ بابي .. ففاضَ البيتُ إشراقاً وعطراً
قد تجلَّى الحسنُ في أعطافها لِيناً ويُسراً
وتناهى وجهها الفتان إقبالاً وبشراً . . .
قالت : اصنع لي تمثالاً يرُدُّ الصخرَ سحراً
ألقي فيه من معانيك . . . وخذ ما شئتُ أجراً
قبلةً من شفقي الحرِّى تريك الليلَ فجراً
أو عناقاً أرتمى فيه على صدرك مَكْرَى
أنتَ كلُّ الناس .. إن هَيَّأتَ لي في الناس ذكراً

قلتُ لبيك ! . . وهل أُسطيع للحسناء ردًا ؟ !
أنا إن ضاق خيالي أو غدا فكري صلدا
فسناكِ الحلو يـغـذو الفنَّ إلهاماً وجهدا
ويمدُّ الأفقَ الضيقَ للإبداعِ مدًّا
واستوى الإزميلُ في كفتي يقدُّ الصخرَ قدًّا
ويسوي الحشِنَ النَّاتئَ سيقانًا وخذًا
ووراء الكفِّ إحساس يزود الزَّيغَ ذودا
وخيالٌ يخلع السَّحَرَّ على الأحجار بُردا
نفحةٌ من عالم الروح تجلَّتْ بعدُ خلدا
في مثالي يهب الفنَّ على الأجيال مجدا

ورفعتُ السَّترَ مزهواً وقد ملئتُ عُجبا :
هذه آيتي الكبرى إلى الحسناء قربي

سوف تبقى في سماء الفنّ للأرباب ربّاً! . . .
فرنتُ عَجَلِي . . . وردّتُ طرفهاً للباب غضبي
وأشاحت ثم قالت : قد ملأت القلبَ كرباً
وسكبت الخيبة المُرّة في الآمال سكبا
أنا لم أسألك أوهاماً تخال الأرض سُجبا
أنا بنتُ الأرض . . لم آلُ التراب الحَيَّ حُباً
قد رفعتَ السترَ عن زيفِ يردُّ السهل صعباً
أمثالي ذاك ! لا . . ما كنتُ للأملاكِ تريباً

لم ملأتَ الوجّهَ والعينين أحلاماً ونجوى؟!
وجعلتَ الجسدَ المستوفزَ المشدودَ رخوا
ورسّمتَ الطهرَ في ثغر من التقبيل أحوى
لم أضحى خطوى المستيقظُ المراح رهوا؟!!

واستحالت لهفة القلب إلى اللذات سلوى
أين نهد جشمته الرغبة الملحاح صحوا
وفم كالبرعم الظمان . . . بالنيران يرّوى !
ولحاظ — قبل أن تشهد لون الراح — نشوى
ذاك صوت الحق . . قد أضحى على زيفك لغوا
وأباطيل تريد الفنّ إيّانا وتقوى

وهوت بالمعول المشئوم للتمثال حطا
فهوى كالقمة السماء عدوانا وظلما
بدداً قد خلّتها في موطن الأقدام تدمى ! . .
ومضت في ثورة هوجاء كالإعصار قدما
توسع الأرض خطاها الحمر تمزيقا ولطا
وعلى آثارها خط الدم المسفوك رسما :
ها هنا منذ قليل أزهرق الواقع حُلما

وَبَلَى الْفَنَّانُ رُوحاً صَوْلَةَ الْحَسَنَاءِ جَسِماً! ..
ومضت ... واصطفق الباب .. فألقى الباب حكماً:
عُدْ إلى وحدتك الخرساء يا مسكين رغماً

عدتُ يا وحدتي الظمأى فروى الثار منى
واتلُ يا ليل غياباتي وخُذْ يا صمتُ عنى
وقفى ما بين هذا النور يا حُجبي وبينى
دِفْنِ شمس الناس يكويني .. ويؤذى النورُ عيني
اسكتي أيتها الأحلام ! .. فالبلوى تغنى
ألف بوق .. ألف طبل من أغانيها بأذنى
أو أسلو ؟ ! كيف للسلوان أن يرتاد سجنى
وأمامى فى الثرى أشلاء أحلامى وفنى !
يا شذاها .. أو ما زلت بأعطافى وردنى ؟ !
ويحها غابت .. وأبقت ستمها فى الجوى يضنى !

إِنطِلاق

في مطلع الوادي وقد ولى عن الوادي سناء
وتجاوبت في المغرب الغيمان أصداء الرعاة
ألقى على كتفيه شملته وهم إلى عصاه
ومضى ترؤد المرج عيناء ويضغى للشيء

يتسمع الصوت الذي تحلو بنبرته السهول
أصغى من الناي المسلسل عند أحلام الأصيل
هي شاته سمر الحقول وفرحة الكوخ الجميل
سمراء كالفجر الوليد يجرُّ مطرفه البليل

ومشى يغنى في خفوت نحو منعطف الطريق
يسعى ليلقاها وفي عينيه للنجوى بريق
وبشائر الأمل الجميل تهزّ خاطرَه الرقيق
عجبا ! لقد سكن المكان - فلا أنيس ولا رفيق

* * *

لم يلمح الشاة الحبيبة تقصد الراعى الحبيب
والريح لم تحمل إليه ثغاءها عند الغروب
هو لا يراها بين قطعان تراحم في الدروب
يا لهفتا ! ماذا ترى قد عاقها ؟ ومتى تؤوب

* * *

وترددت في فكره المكدود أوهامٌ ثقيل
ذكر الغراب وكيف صاح على غصون البرتقال
والكلب كيف عوى ومرغ وجهه بين التلال

يا شؤم هذا اليومِ تسرى فيه رائحةُ الزوالِ !
هو ذا يذود بكفه عن عينه ألقَ الشعاعُ
ويدور يرقب كل راية وينظر كل قاع
ويعود يرنو خلف رعيان إلى المأوى سراع
يا ويحهم رجعوا!... وخُلفَ وحده القلقُ المراعُ

أيثوب يسحب بعد غيبته عصاه في انكسار
أينجادر الشاة الحبيبة في الظلام بلا قرار
ويروح لم يسبقه في الدرب الطويل لها غبار؟
بئس الرواح إذن . . وما أخلى من الأنس الديار!

ومضى على وجل شرودَ اللب يعثر في خطاه
وفؤاده العفّ الطهور يكاد يتهم الإله

فيردّه للصبر والإيمان باقٍ من نُهَاه
ويعود يدعوها على أملٍ ويرفع من نداءه :

يا فتنة الراعى لقد أوفى على المرج المساء
وتضرجت مُحمر الغيوم بما تبقى من ذُكَاة
ونسائم الليل البليل تسوق أنفاس الشتاء
والطير قد عادت وملء وطابها حبٌّ وماء
وفراخها فى عشها متسمّعات للقاء
للدفء والشبع الشهى والغناء وللمكاء
والزهر فى ألقافه أغنى على نعم الرّعاء
أغنى على شط الجداول قد خطرنا على ونا
فتتبعى يا فتنة الراعى أناشيد الحدا
تحدو رواحك نحو كوخ قد أقيم على صفاء

يا فتنة الراعى لقد رانت على الأفق الغيوم
وخبا من الشفق اللهب فعاد كالطلل القديم
وتأوتت في الغاب أرواح أقضتها الكلام
وسعت به الأشباح في ستر من الغسق البهيم
أشباح صرعى غالها في الغاب شيطان رجيم
لبست قناعا من دم وتسربت كفن الرميم
رقصت على زبد الجراح وقد نرفن من الصميم
والريح تعزف لحنها المشنوءة كالمفس الكظيم
وعمالق الشجر الرهيب تحف أجواز النجوم
وظلالها من نحتها متموجات كالسديم

يا فتنة الراعى لقد طويت على الشر الهضاب
وتلفعت بالصمت أودية تضحج بها الرغاب

في كل مربأة تأججُ مقلةً وَيَصِرُّ ناب
أني خطوتِ فلردي خطو وللعدر انسياب
سكنت على العشب الصَّلالُ تدير للفتك اللُّعاب
متكورات كالهشيم فما تُحسُّ ولا تُهاب
وتربصت خلف الصخور الصمَّ عادية الذئاب
غرثي تلوك الطينَ من سَغَبٍ وتستاف التراب
وتعضُّ بالأذنان في خَبَلٍ وتستجدي الشعاب
تعوى فينتفضُ الكرى وتهز أستار الضباب !

أما الشَّروُدُ فأسلمت للغابة الكبرى خُطاهها
يقتادها شوق إلى المجهول ينفخ في قواها
كم ليلة راحت مع الراعي يُجاذبها هواها
فالآن فلتُقدِّمِ على الأدغال حتى منتهأها

كم ليلة وقفتُ أمام الغاب يعصرها الوفاء
وغماغمُ الدَّغْل العجيب يزيد فتنَّها الخفاء
وروائح الورق المحمَّر في الثرى روحُ اشتها
كم فوق هذى الأرض من دنيا! وكم تحت السماء!

عجبتُ من الكوخ الكئيب وكيف طاب لها المقام
في منزل مستوحشٍ خشينٍ دعائمُه حطام
الزاد في أركانه حطب ومضجعه رغام
يتفلسف الراعى ويزعم في بساطته السلام!

وتقدمتُ بخطى المحاذر والدوار بها يميدُ
من رهبة الجنح المديد ونشوة الكون الجديد
ماذا وراء الستر من غيب؟ وما خلف الحدود؟

ليت الظلام يشف عما قد أجنّ من الوجود

وتقدمت فإذا الظلام كأنه صبح منير
ألفته عينها فما فرقت الحواجب والستور
نكرت هنالك ما وعته عن الظلام من الشرور
لا ضجة الأشباح تلقاها ولا صمت القبور !

شهدت هناك توثب الأحياء للكون الرحيب
وعصارة الحيات يُسمع في الغصون لها ديب
وتنفس الأرض الدفيئة وانبعاثات الطيوب
وتشقق الطين المضمخ عن وليدات الغيوب

وتملؤ العليق واللبلاب من رُوح البقاء
يسمو فيزحم منكب الدّوح الفتى إلى الفضاء

وغضارة الفطر الضعيف يكاد يغلبه الحياء
لم يجفُّه الماء الرّويُّ ولا تنكبه الهواء

كلُّ ينال وإن تراحت الأمانى مبتغاه
في عالم خصب تملل من خصوبته تراه

وتقدمت فرأت عوالم لا يحدُّ لها براح
تنداح في أرض مشعّبة وآفاقٍ فساح
وتضيق حتى ما يمدُّ الطيرُ فيهنّ الجناح
وتُذبذب القلب المغامر بين ضيق وارتياح

وتجاوبت في الغابة الفرعاء ثرثرة الرياح
تمزوجة الأصوات لا همسٌ يبين ولا صياح

وسرى الصغيرُ مع الهديرِ وخالط الضحك النواح
وحشيّة الأنعام بنت الغاب لم تُعرف براح!

والسيل ما أعتى توثبته على هام الصخورُ
متحدّر الأمواج منقضا بأجنحة النُور
زبد كألوية الضياء ولجة كدجى القبور
وهمَاهِمٌ مكبوتةٌ كالإثم فى جوف الضمير!

خاضت إليه وزاحمت بقوى موثقة قواد
القاع يجذبها فتمسوى ثم تنشلها ذراه
فى القاع إحساسٌ وفوق الماء إحساس سواه
بُوركتَ يا سيل الحياة جريت فى عنف الحياة!

حلم تقظت

في مساء خافق الغيمات كاب
والدجى يلقي على الأكوان سترًا
سرتُ غصَّانَ بأهواء شبابٍ
يبتغى من خيبة الآمال وترا

سرت والأضواء حيرى في الظلام
كلما ضل شعاع غام كربُ
والرؤى تجبو إلى قومٍ نيام
وأنا وحدى إلى الآلام أحبو

ترقص الأظلال في صمتٍ مهيب
فيميد الشجو في أعماق نفسى

وتزفُ الریح فی لحنِ رتیب
فیجیب الیأس من یومی وأمسی

وعلى الریح جناح خافقُ
یضرب الآفاق للعشّ الحیبُ
وبجنیدیه حنین سابق
یرتمی فی لحنه الساری الطروب

أبتَ یا طیر ووافقك السلامُ
ووقاك الله أوهام الضلالُ
ولینز شوقك أسداف الغمام
ولیذد حُبك آیاتِ الكلال

أُبْتِ يا طير . . . فيا بؤس الحياة
لغريب بات من غير رفيق
أنا يا طير عليم بأسائه
وبما يلقاه من همٍّ وضيق

وهوى في مسبح الديجور طيف
راجف الذرات موهون الذماء
واستوى الليل وحف العرش خوف
أسود الجلباب منشور اللواء

إيه يا ليل العناة الحائرين
أنت يا ليل رهيب في سراك
تبسط الشك على وجه اليقين

ويُرَاعِ الأَمْنُ من وقع خطاك

ياله صمتاً إذا ملَّ السكونُ

زفر الريحَ صغيراً كالفحيحُ

فإذا الصمت جهر مستبين

يبعث المورودَ من ماضى الجروح

عذتُ بالله أيا ریح الشتاء

من معانٍ فيك تستدنى الأجلُ

غلب البؤسُ فأسعدُ يا رجاء

ودجا اليأسُ فادركُ يا أمل . . .

وبدا في الجُنح من أعماق نفسى

كانبثاق الحبِّ من جوف التراب

بارقٌ ييسم في صقو وأنس
راقص اللمحات جذلان الشباب

داعب الآلام فارتاحت إليه
ومشى لليأس فأنحلت عراه
ومضى لم يختلف شجو عليه
كما طاف بمكروه محماه

أشرقت نفسى كإشراق الوليد
رائق الصفحة مبسوط الضمير
واستفاض النور فاجتاب الوجود
يهتك الحجب فتدعوه الستور

فإذا الليل صباح وادعُ
أبيض الآفاق لألاء الندى
وإذا الصمت هـدوء رائع
حالم الأنفاس مرموس الصدى

وهنا الصفو إلى لحن الرياح
فإذا اللحن كما تهوى النفوس
لا عناء ، لا ملال ، لا نواح
كغناء الغيد في مجلى العروس

غشى القلب حنينٌ زاخرُ
وبدا الكون جميعاً ينتظرُ
مسمعٌ مصغٍ وطرف ناظرُ

ومنى تحشد أشتات الصور

ومشت في مدرج الوادي ظنون
تسأل الوادي عن الغادي الرحيم
لمن الشوق ونزاع الحنين
ومن الساري على متن الغيوم؟

أقبل يا ربة الحسن النبيل
من حنايا القلب للأفق الرحيب
وابعثي الماضي فلماضي صليل
سئمت أصداؤه سجن الغيوب

وبدت تخطر في رفقٍ ودل
كانسياب الماء في ضوء القمر

يشفق الأفقُ عليها أن تولى
فيهاديها تهاويلَ السَّحَرِ

نَسَقَ الزَّهْرُ لعطفِها وشاحاً
وزها التَّاجُ بغراءِ الجبينِ
وسما طَلَّ إليه فاستراحا
وهفا طَلَّ إليه في العصونِ

لفتاتٌ مثلما يلهو شُعاعُ
عابتِ المرآةِ في كفِّ الوليدِ
التماعُ ثمَّ ينجفى في التماعِ
ثمَّ يرتدُّ إلى وجهِهِ جديدِ

ولحاظ جمعت وَعَيْبًا وسهوا
إن أردتَ الفكرَ أوردتَ الخيالَ
في ظلال الهدب أسرار ونجوى
وعلى الألحاظ من فكرٍ ظلال.

حبذا الفتنة من هذى الشفاهُ
وضحكٍ ليس يدري كيف يعبسُ
من رضى النفس تجلَّى في سناه
ورضى النفس مَعِينٌ ليس يُحبسُ

حبذا أنت من الدنيا نصيباً
أى دنيا من نعيمٍ وهناء !
قد غفرنا للأسى الجانى الذنوباً

فليُسرِّ من بعدها كيف يشاء

يا قرار الروح قد طال الهيامُ
بأهوى الموعود في ظل الشباب
كاد يمضي العمر عاماً بعد عامٍ
في منى حيرى وأحلامٍ ككذاب

آن يا سلوأي أن أنسى الجراحُ
طال يا سلوأي ما أنت جراحى
سكنت نفسي إلى ضوء الصباحُ
شدّ ما أخشى على ضوء صباحى!

غلبَ الوهمُ على صدق يقينى
وعشقت الحبّ في ريق صباي

وقضيتُ العمرَ أحلاماً فيكوني
في أصيلِ العمرِ تأويلِ رؤاى

كان لى فى مطلعِ العمرِ غديرُ
مائسِ الأعطافِ فى وادٍ نضيرُ
موجهٌ لحنٌ على الماءِ يسيرُ
ناعسِ الأنعامِ وسنانِ الخريزِ

كم صباباتٍ زكتُ فى ضفتيه
وأمانى زهتُ حولِ ربادِ
وغرامِ هامسٍ فى مسمعيه
خفقةُ الأمواجِ والطيرِ صداهِ

تضحك الجراتُ للماء الطروبُ
وترُوعُ الشطِّ هساتُ العذارى
كلما هبت شمَالٌ أو جنوب
حملت سرا على الكتان ثارا

كلما هبت أثارت في الحنايا
عاصفا ينزو من الشرق المریدُ
فمضى اللحن بأهواء الصبايا
سامى الأنفاس محلول القيودُ

قد شهدتُ الحسنَ ألواناً عليه
فهنا للحسن خفاقي الصغیرُ
ورأيتُ الحبَّ يختال لديه

فصحبت الحب . . . والحب سمير

ثم لفّ النهرَ والوادي ضباباً
وانطوى في غمرة الأيام صفوى
بين همٍّ وسقامٍ واغتراب
وخطوبٍ أرقت نومي وصحوى

ذهب النهر . . . فكوني أنت نهري
إن حبي لم يزل غصبا جديدا
كحياة العود في الأعماق تسرى
والشقاء الجهم لم يتركه عودا

نحن نبعان حبساً صخرة
من تقاليد السنين الغابرات

فلنذُدها ولنقيضُ في ربوةٍ
رحبة الآفاق من ماضٍ وآتٍ

تطلع الشمسُ علينا في عناقٍ
وتغيب الشمسُ عنا في سِرارٍ
ليُلنا نحو أمانينا سِباقٍ
ولمأوانا ومغفانا النهار

في ربيعٍ من عطورٍ وغناءٍ
رائع الأفواف من عشبٍ وزهرٍ
ضلَّ عن واديه روادُ الشقاءِ
لا النوى تدرى... ولا الأقدار تجرى

وهوى من مغرب الأفق غمام
مكفهرٌ بعضه يدفع بعضا
ينشر الليل على فجر السلام
ودُجَاه للسنا يقطر بغضا

زحمته الشهبُ فاستعدى لها
كسفاً تعلو وأخرى تسفلُ
تُقولُ الآفاق ممّا غالها
وتئنُّ الريحُ ممّا تحمل !

أبصر الطيفُ دجاء فاختفى
ورنا النور إليه فارتجفُ
وتلوّى لحظة ثم اقتفى

أثر الطيف فلفته السدْفُ

وتبدى في فؤادى بعد حين
شاحبَ اللحة مقررَ الشعاع
واهن الخفقة من تحت الشجون
الشجون السود... ظمأى للصراع

أوصدت كلَّ سبيلٍ للهواء
فبكى النورُ إليه واضطربُ
ثم سلت روحه كفا القضاء
وتلاشى... مثما جاء ذهب!

وتلاشى مثما تخبو الشموعُ
فوق قبرٍ موحشٍ في ليل عيدُ

الأمانى والقوافى والدموع
فى ثراه تندب الماضى السعيد

قد تركنا اليوم للضمّ العتاه
وتركنا الغد للغيب الضنين
وتشبثنا بماضينا فتاه
فى ضباب من عذاب وشجون

يا فؤادى ليت شعرى ما دهاك !
هى ذكرى .. أى ذكرى لا تغيب؟!
قد أبيتَ الدمع فى قاع الشرك
أو تُجرّيه على طيفٍ غريب ؟ !

وأجاب القلب بالصمت المبين
ودماه من أساه تنتفض
فحشت الخطو في الليل الحزين
وصروح الغيم لما تنتفض

ترقص الأظلال في صمت مهيب
فيميد الشجو في أعماق نفسي
وتزف الريح في الحن رتيب
فيجيب اليأس من يومى وأمسى

غِيَابُ

الضحى في المرج مبهور الضياء
آسِنُ الصَّفحة من ریح وماء
كلما همَّ بلمح من رجاء
سبق الغيمُ إليه فطواه

ما لهذا الطير معقولَ الجناح
وغصون الدوح ملتها الرياح
ونفوس القوم قد عُلَّت براح
للأسى والصمت تُنعى كرمته!

وسكونٌ جاثمٌ في كلِّ حَيٍّ^١
وحرورٌ لافحٌ من كلِّ فَيٍّ^٢
وظلامٌ غائمٌ في مقلتي^٣
آه لو تجليبه عني مقلتهاه !

أيها الغائب عن هذي المروجِ
أكثرَ الصمتِ حوالِي الضجيجِ
غيرَ همسٍ من نُفثاتِ الأريجِ
وحنينٍ للذي غاب شذاه

أيها الغائب لا عتب عليكِ
الشبابِ النضرِ رياتٍ لديكِ

وأمانيك جميعا في يديك
كيف تدرى أن في الدنيا عناه؟!

أنا يا دنيأى أبلتنى المهموم
والليالى الضمُّ والوجد الكظيم
واستطابت أفقى الكابى غيوم
تلتقى الأقدام فيها بالجياه

أنا يا دنيأى قلب من شجون
خفقه الموهون أناتُ الحزين
أنختُ فى عزمه سودُ السنين
وتلاشت فى مناياه منسياه

كل ماضيه من النعمى خلاء
والغد المحجوب غيان الرجاء
أين يمضى خطوه . . . ماذا يشاء
وسناك الحلو لا يهدى خطاه؟!

امنحى ماضيه من نعمك ذكرى
فالغد المحجوب يخفى ثمَّ أمرا
وأسى الماضى ترد الشجو صبرا
وتشد العزم إن كآت قواه

وإذا ما مرَّ يوما فى رحابك
يرتجى الروح على أعتاب بابك

فاغمره بحياة من شبابك
تبعثه من جديد للحياه

وإذا أبصرته ملّ الصحاب
وأغصّ الكأس بالهمّ المذاب
فامنحيه عطفة... يُمنح العذاب
وتُحسّ الصاب حلواً شفتاه

لا تمرى كأمانيه سراعا
واستقرى في لياليه شعاعا
إنه يجرعها ساعاً فساعا
ويح هذا العمر لو طال مداه!

أنتِ نبع من صفاء وحنانٍ
يغمر القوم بأضواء حسان
وهو المحروم مُعْتَدِّ جبان
منطوى النفس على ذل وجاه

شاعر ملّ على الباب الزحام
يشتهي الحب ويأبى أن يضام
فاحجبي القوم وخُصِّي بالسلام
ذلك القلب فلا قلب سواه

حدّثيه ثم لا تبغى جوابا
ودعيه يصحب اللحن العجابا

وإذا ما هزّه الصمتُ فشابا
فأرحميه واسأليه عن رواه

اسأليه واغفري خفقَ بيانهُ
فألجمال الطهرُ أقوى من جنانه
والحديث العذب يسرى في كيانه
فيردّ القول نشوان الشفاه

تلك يا غائب آمال كيباز
في رؤى الليل وأوهام النهار
كلما صاديتُ عنها الفكرَ تار
ومضى يضرب في دنيا هواه

كم سكبتُ القلبَ آمالاً حسانا
واثباتٍ تتخطى بي الزمانا
ثم خلّنتى وأبقت لي الهوانا
وكثيباً خفّفه رجوعُ أساه

علّمتني صحوّة الحلم السكون
ورضى المغلوبِ بالجدّ الطعين
فاذا ما ضجّ في قلبي الحنين
قلتُ أسوان... وفي العتبي نجاه :

أيها الغائب لا عتب عليك
الشباب النضر ريات لديك
وأمانيك جميعاً في يديك
كيف تدرى أن في الدنيا عُناه ؟!

لَا أُسْتَطِيعُ

كَلِمَا أُزِّتَ بِرَأْسِي ثَوْرَةُ الْفِكْرِ الْأَبِيِّ
وَحَمَلْتُ الْمَعُولَ الْمَهْدَامَ فِي كِلْتَا يَدَيْ
قَاصِدًا أَصْنَامِي الْكَبِيرَى وَقَدْ هَانَتْ عَلَيَّ
خَيْلَ الْحُبِّ لِعَيْنِي أَنَّهُمَا تَرْنُو إِلَى
دَاعِيَاتِ الْهَوَى . . . وَالْهَوَى عَذْبٌ شَهِيءٌ
عَاتِبَاتٍ ، هَامَسَاتٍ : إِنْ بَعْضَ الرُّشْدِ غَفَى
فَهَوَى الْمَعُولُ تَحْذُولًا وَخَلَى سَاعِدَيْ
وَسَمَا كَفِّي لَهْفَانَ يُوَارِي مُقَلَّتِي
وَتَنَزَّتْ مِنْ فَوَادِي صِرْحَةً فِي شَفْتِي :

إِنِّي لَا أُسْتَطِيعُ !

إنها آمال نفسي وريباتُ خيالي
سُقيت ذُوب حَنيني في غيابات الليالي
ونماها بيتي المهجورُ من صَحبي وآلي
سلوتي والوحشة الخرساء ترمي بالملال
طافراتٍ بالعشايا عن يميني وشمالي
ساخطات راضيات بين صدّي وابتهاالي
ملقيات في منامي بالأمانِ الغوالي
عشقتها النفسُ حتى سئمت عيشَ النضال
كيف أسلو؟! كيف أنسى! كيف أغتال مثالي؟

إنني لا أستطيع!

صُغْتُها بيضاء من نسكي وحرمانى وطهرى
سامياتٍ لم يدنس ناظرها طيفُ شرِّ

لا ولا ألقى على أسماعها غارٍ بسرٍّ
كيف حلُّ الغدرُ في لحظين ماريعةً بغدرٍ؟
وثوى الشرُّ رخيُّ البال في قلبٍ وثغرٍ
يا لروحى... كيف حارت بين إقدامٍ وفرٍّ
كلما همَّ إبائى وسمما الحزمُ لأمرى
أجهش الماضى وأنت حُرمةُ الذكرى بصدري:

إننى لا أستطيع!

رُؤْيَا

أَيُّهَا الطيفُ عَجِيبُ أَنْ تُتِمَّ
أَيُّهَا الطيفُ غَرِيبُ أَنْ أُرَاكَ
ذَاكَ مَاضٍ قَدْ نَسِينَا عَهْدَهُ
وَنَسِينَا هُدَاةَ اللَّيْلِ سُرَاكَ
قَدْ جَهَدْنَا النَّفْسَ حَتَّى أَسْمَحَتْ
وَاسْتَرَحْنَا بَعْدَ لَأْيٍ مِنْ هَوَاكَ
وَحَبَانَا اللَّيْلُ مِنْ سُلْوَانِهِ
وَأَلْفْنَا بَعْدُ أَطْيَافًا سَوَاكَ
مَا دَعَوْنَاكَ... فَلَمْ قَدْ جِئْتَ تَسْعَى
وَلَكُم عَاصِيَتَ قَبْلًا مَنْ دَعَاكَ؟!

نَحَّ يَا ذَا الطيفُ عَنِّي بِسْمَتِكَ
شَدَّ مَا أَبْغَضُ يَا طَيْفُ الخِداغُ !
هِيَ حُسْنٌ قَدْ بَلَوْنَا شَرَّهُ
وَمِنَ الحَسَنِ عَذَابٌ وَمَتَاعٌ
ثُمَّ عَدْنَا مَا احْتَقَبْنَا غَيْرَ صَمْتٍ
فِي وَهَادِ اليأسِ . . . قَاتِمًا بَعْدَ قَاعِ
نَحَّ يَا ذَا الطيفُ عَنِّي نَظْرَتِكَ
قَدْ هَتَكْنَا عَن مَخَازِيكِ القِنَاعِ
أَنْتَ مِنْهَا صُورَةٌ مُوسُومَةٌ
بِالجمالِ القُدسِ والعَرَضِ المَضَاعِ !

أُذُنُ يَا طَيْفُ . . . لَعَلِّي وَاهِمٌ
زَيْنُ اليأسِ لَهُ قَوْلَ الضلالِ

اقْتَرِبْ ! أَنِي أَحْسُّ الْآنَ رَوْحًا
مَنْ نَقَاءٌ لَمْ يَدْنُسْهُ ابْتِذَالُ
مَقْلَتِكَ الْيَوْمَ مَا أَصْفَاهَا !
فِيهِمَا حُبٌّ وَشَجْوٌ وَابْتِهَالٌ
وَلَمَّا الْيَوْمَ مَا أَعْجَبَهُ !
صَادِقُ الْبِسْمَةِ عَلَوَى الْقَالِ
أَذُنُ يَا طَيْفُ . . . فَلَسْتَ الْيَوْمَ مِنْهَا
أَنْتَ لِحْنٌ مِنْ أَغَارِيدِ الْخِيَالِ !

أَنْتَ يَا طَيْفُ لَهَيْبٌ مِنْ دَمِي
لَسْتَ يَا طَيْفُ شِعَاعًا مِنْ سِنَاهَا
أَنْتَ فَيْضٌ مِنْ حَنِينِ زَاخِرِ
نَفْسِهِ النَّفْسُ مِنْ بَعْضِ مَنَاهَا

قد عرفتُ اليومَ أني لم أزل
رغمَ جهدِ النأيِ أشتاقُ لقاها
أغتدى والصبرَ لفظاً في فمي
وبأعمقِ نحيبٍ من هواها
ويك يا طيف! .. بعثتَ اليومَ رؤيا
أيقظتَ نفسيَ من عذبِ رؤاها

أيقظتها في ظلامٍ سادرٍ
لم يبدده سوى ضوء هشيمي
جمرة في القلب تذكى حولها
ألسناً حمرا من الوجد العقيم
وعلى النور... رأت عيناى هولاً
من نفاق العصر والطبع اللثيم

عشتُ حتى اليوم طفلاً ساذجاً
بأيمماً للصبح والليل البهيم
آه مما أبصرت في النور عيني !
عدتُ يا طيفي كالشيخ الحطيم !

قد بَكَيْنَا وَأَمِنَّا أَنْ نُرَى
وَالْأَسَى فِي وَحْشَةِ الظُّلْمَاءِ يَحْسُو
دمعةً في اللـيل . . . ما أروعها
تتلوى . . . مثلما ينساب صِلُّ
مثلَ لُدْعِ النَّارِ قَرَّتْ فِي فَمِي
بِوَلْهَا فِي وَجْهِ الْمَحْرُورِ غِلُّ
لَا تَخْلُهَا بَهْرَجًا مِنْ شَاعِرٍ
يَمَلَأُ الْقَوْلَ مِنَ الزَّيْفِ وَيَغْلُو

فلقد تعلم يا طيفي أنني
ما ذكرت الدمع في شعري قبلُ

أيها الليل... وكم شاهدت صرعى
أغمضت أعينهم كف دجاء
هل سمعت الدهر من أناتهم
أنه من هولها هزّت حشاك
هل سمعت الدهر بثاً مثل بثي
أو تملت مثل شجوى مقلتك
إن يكن ياليلُ في دنياك خطبي
دون خطب الناس في دنيا الهلاك
فلهم ياليلُ قلبٌ دون قلبي
ولهم ياليلُ حسٌ دون ذاك!

لِيَ يَا لَيْلِ فَوَادٍ رَاصِدُ
يَلْمَحُ الْأَشْجَانَ فِي الْأَفْقِ الْبَعِيدِ
مِثْلَ غَارٍ سَاكِنِ الْقَيْعَانِ خَاوٍ
هَمْسَةُ الرِّيحِ بِهِ قِصْفُ الرَّعُودِ
إِنْ يَكُنْ يَا لَيْلِ مَا قَدْ ضَاعَ مِنْهُ
بَعْضُ زَيْفٍ مِنْ تَفَاهَاتِ الْوَجُودِ
فَعَزِيزٌ عِنْدَ رَبِّ الرُّوضِ رَوْضُ
وَعَزِيزٌ عِنْدَ رَبِّ الْعُودِ عُودِ
وَيَبْكِي الطَّيْرُ مِنْ أَعْيَاشِهِ
مَا يَبْكِي الْقَوْمُ مِنْ قَصْرِ مَشِيدِ

أذكريني

افترقنا... فاذا كرى الماضي ولا تنسى صداة
والحى فى كل محزون خيالاً من رواه
وإذا طالعت فى دنياك ألوان الحياه
من شقاء ووصفاء ومهانات وجاه
فأطيلي وقفة الآسى على النبل المهيين
وصبابات أمانى وجاه... واذا كرىنى

وإذا رفرف عصفورٌ بأجواز السحاب
مرح الخفقة والفتة صداح الإياب
وتدلى.. فرأى فى العش أظفار الخراب
ورأى أفراخه الزغب دماء فى التراب

فاذرفى من دمعتكِ الغالى على الطير الطعينِ
ونفوسٍ شفها ذلُّ الترابِ . . . واذكرينى

وإذا ألفت بأيديها إلى القبيظ الظلالِ
واستباححت لفحةُ الشمس محاريبَ الجمالِ
ورنا الزهرُ إلى النور بأجفانٍ ثقالِ
وتمشت فى رحاب الكون أنفاسُ الكلالِ
فأحسسى اللّفْحَ والضيقَ مع الظلِّ السجينِ
وانشدى الروح لأبناء الكلالِ . . . واذكرينى

وإذا أنت على صمتٍ من الليل الرّياحِ
وتوارت فى دياجى السحب آفاقُ الصباحِ
وأفاق الطيرُ من نجواه مذعورَ الجناحِ

وصحت من حولك الدنيا على ونخز الجراح
فدعى روحك تنساب مع اللحن الحزين
وامنحى الرحمة أنضاء الجراح... واذكرينى

وإذا ما خفق الشجور على سُمرِ الغصون
باكياتٍ تاجها الأخضر في كف المنون
وتبدى الأفق الشاحبُ مقروراً الجبين
وظفت في خلد الأحياء أحزان السنين
فابعثى في نفسك المراح مطوى الشجون
وجراحاتٍ أقرتها السنين... واذكرينى

ثورة الأشم

يا حياتي . . . أدركي العهدَ فقد طالت نواكُ
وهفا قلبي إلى سرِّ وعته مقلتناك
طال ما أمضيتُ أيامي ولا نجوى سواك
وطويتُ الليلَ مهجوراً وفي صدري هواك !
قربيني . . . ودعيني أتَنفَّسَ في ذراك
ودعي لحبك يسبح في صفاءٍ من رضاك
حدَّثيني . . . قد أبيتُ الرّوحَ إلا من شذاك
وسئمتُ القولَ إن لم تبدعه شفتاك
يا لهذا الصوتِ ريانٍ بفيضٍ من نُهاك
يا لألفاظك نشوى فائنات كصباك !

قربى رأسك منى واهمسي همس الحبيب
ما الذى قلت؟ أعيدى ذلك اللفظ الغريب
أذكرت الإثم؟ يالى من رفيق لا يغيب!
اسكتى... لا تنطقى بعد... فما ينجى الهروب
اسكتى! قد نطق الماضى بصوت من لهيب
وتلوّى فى كيانى ذلك السرّ الرهيب
أتركينى... فلى الماضى من القول ضروب
يستحى صوتك لقياسها وتأبى أذناك

يا فتى الحان تقدم وأدِرْ لى الصبوات
هات لى الكأس فى الكأس شفاء الذكريات
ينسخ الماضى بسواها ويحلو كل آت
اسقينها قيسا تعنىو لديه الظلمات

تضحك النشوة فيها وتمسور النزوات
ربة النسيان . ما أمست على هم فبات
اسقنيها .. فرغت كأسى .. فلا تغفل وهات !
ها هي النشوة تحدونى إلى وادى السبات
عالم الأحلام والأوهام والحظ المؤات
خدرت رأسى ... وأغفت من حوالى الترات

عجبا ! ... ماذا أرى فى كأسى الطلق المنير !؟
قطرة سوداء تطفو فى سكون وتغور
ثبتت عيني عليها ... حيثما سارت تسير
ويح عيني ! ها هي القطرة تغلى وتغور
تركت كأسى قارا وشواظا من سعير
إنه الإثم ! .. إذا ما خلطه نام يشور

أيها الكأس تحطم ! . . . وتحطم يا سرورا
طاردت روحيَ آثامى فما يجدى انفلات

أيهذا الروض . . . يا سلوة أنضاء القضاء
يا رجاء اليأس المكروب إن عزَّ الرجاء
قصدتك الروح حسرى بالذى جلَّ وناء
وأناك القلب لهفان إلى ظلِّ وماء
ومهادٍ يلتقى الإصباح فيها بالمساء
نعست في ساحها الأظلال واسترخى الضياء . . .
وغدير عرفت أمواجه معنى الصفاء
لا سموم الصيف تُزجيتها ولا ريح الشتاء . . .
وغناء رفَّ فيه الصبر وانساب العزاء
لعبت من حوله الأفراح واستخذى الشقاء

آه .. لكنى أحسُّ الشرَّ يدنو من بعيدٍ
وأرى الروضَ سقيمَ السَّرحِ مَمرورَ الصَّعيدِ
كدرتَ أمواجُ هذا النهرِ واستخفى النشيدُ
ومشى فى ضفتيه الضيقُ والهمُّ المبيدُ
لا المساء العذب فى الشطِّ ولا الصبح الوليدُ
سمعت أذنى فحجیحَ الإثمِ فى ظل الورودِ
كامناً يقرع للفتكة أنيابَ الحقودِ
أيها الروض وداعا وعلى الأمنِ العفاء !

يا حياتى .. أوصدت سبلى وضاقت بى الرِّحابُ
وانتهى سعيى إلى قفرٍ من السلوى يباب
فيه من حرِّ ومن قُفرٍ ومن ظفرٍ وناب
رصدُ الإثمِ ... ومن كالإثمِ يغتال الرغاب !
يا حياتى ... فجَّرى ينبوعَ من خلف السراب

ما شفائي نعمة الثغر ولا همس الحجاب
أنا ذاك الأثم العاصي .. فكوني لي المثاب
واسمعي مني سرًّا جلًّا عن سمع الصحاب
ليس يلقاه سوى قلب إلهيَّ الإهاب
يرحم العاصي ويعفو ويرى الإثم العذاب

يا حياتي .. أنا ذبُّح الصمت والسرِّ الأليم
أنا أصداء شقاء ونفائات جحيم
كلما مال بي الهاديُّ إلى نهجٍ قويم
ردّني للإثم والأرجاس جَلادٌ رجيم
من حنين الروح للدنيا ومن نبض الكلوم
من رفيف الشوق في الصدر ومن همس النعيم
أنا يا دنياي في الدنيا شعاع في غيوم
فاسمعي تسكن الروح وينجاب الضباب

جنت الأوهام

أسلمتُ للوهم أفكاري ووجداني
وذقتُ في خدرِ الأوهام سُلواني
أمضى مع الناس لا عيني بشاهدة
ما يشهدون . . . ولا أضوتُ بأذاني
دنيايَ عالمِ أحلامٍ مهوِّمة
تهفو فتُمسح آلامي وأشجاني
وانغتندي ورؤايَ البيضُ تبسم لي
وفي خيالي تهويماتٌ وسنان
هجرتُ ما كان من يأسى وموجدتي
وصغتُ بعد مرير الصمتِ أُلجائي
كم ظلتُ أضربُ في دنيايَ مُحتقياً

في القفر شوق وآمالى وتحنانى
يُلوكنَّ فؤادُ جائعٍ بِشِمِّ
من الأسى وضميرٍ مثقلٍ عانى
نوازِعٌ من رِغابِ طالٍ ما احتبستُ
وطالٍ ما لقيتُ من سوطٍ سيجانى
يعتاقها عن طلاب الرّحبِ محبُسها
فتلتظى لهبًا من نارِ حرمانى
خرساءً منطقتها وَخِزٌّ وشارتها
وَقَعُ المعاولُ فى موهونِ بُنيانى
تملمتُ فأصاب القلبَ حرقها
وملَّ جنوتها صبرى وإذعانى
ناديت من ألى وهى فأسعدنى
بجنةٍ من خيالى ذات أفنان

أَطْلَقْتَهُنَّ بِهَا يَمْرَحْنَ فِي شُغْبِ
وَنَمْتُ بَعْدَ سَهَادِي مَلءَ أَجْفَانِي
وَعَفْتُ صَحْوَةَ دُنْيَا كُنْتُ أَعْشَقُهَا
وَبْتُ أَشْرَبُ مِنْ دَنِّي وَمَنْ حَانِي
سَاقِيَّ أَلْبِقُ مِنْ دَارَتِ عَلِي يَدِهِ
كَأْسٌ وَأَعْرِفُ آسٍ عِنْدَ أَحْزَانِي
إِذَا طَلَبْتُ عَزِيزَ الرَّاحِ بَادِرِنِي
وَإِنْ طَلَبْتُ رَخِيمَ اللَّحْنِ غَنَّانِي
فِي كُلِّ دَفْقَةِ كَأْسٍ يَنْتَشِي أَمَلٌ
وَبَغِيَّةٌ سَمْتُ أَعْمَاقَ نَسْيَانِي
أَرَى بِأَفْقِي مَا أَخْبَدْتُ شِرَّتَهُ
مِنْ الرُّغَابِ وَسُجْبَا ذَاتِ أَلْوَانِ
بِكُلِّ دَانِيَّةٍ مِنْهَا يَطَالَعُنِي

مجدى وحبى وأعوانى وخلانى
أروح للحب حتى يكتفى نهى
وأنهل المجد حتى يرتوى شانى
نجواى فى الليل أبكار معطرة
أبيت لى أرها وترعانى
أصوغ من ألق الأطياف فتنتها
وقلبها من وفاء عاطف حانى
غنيت بالوهم عن دنيا شجبتة
تلقى القياد لذي جاه وسلطان
يدوق لذة ما أولته نعمته
بحس أبله غافى القلب سامان
تلقى القياد . . وتلقى من سرارتها
إلى فم برحيق الشهيد هيان

يُحِسُّ كُلَّ شَيْءٍ فِي قَرَارَتِهِ
بِمُتَرَفٍ مِنْ سَرِيِّ الذُّوقِ فَتَانَ
مُدَلَّهُ بِالنَّعِيمِ الْحَالِ بِدِرْكِهِ
بِالرُّوحِ وَالْجِسْمِ . . . بِالْبَاقِيِ وَبِالْقَانِيِ
دِمَاؤُهُ شَهْوَةٌ حَمْرَاءُ دَافِقَةٌ
وَالرُّوحُ بِالشَّهْوَةِ الْبَيْضَاءِ فِي حَانَ
أَمْضِيَتِ رَيْقَ شَبَابِي فِي الْحَيَاةِ لَتَقَى
أَطْفُو حَتَّى تَبْجَ بِأَلْهَمٍ مَلَّانِ
أُرْعَى بَقِيَّةَ إِيمَانِ أَعْلَاهَا
وَيَطْفُرُ الشُّكُّ مِنْ آنٍ إِلَى آنٍ
حَتَّى تَرَامَتْ لِي الْأَوْهَامُ فِي شَفَقِ
ضَائِقِ الْجَمَالِ عَلَى الْآفَاقِ فَتَانَ
خَفَقْتُ مِلءَ جَنَاحِي نَحْوَ سَاحَتِهِ
وَضَاعَ بَيْنَ الرُّؤْيِ شَكِّي وَإِيمَانِي

شذوذ المحسوس

إذا عطرُك النَّفاح طاب عبيره
ورفت به الأحلام أيان يفتدى
تمثلت الأسرارُ فيك روائعا
يخفُّ لها قلبي وتقصر عن يدي
فلا تسلي قلبي مسامح وهمه
ولا تحرميه الشوق .. فالشوق منوردي
ولا تهدي صرعا أقتب عماده
بأشواق الحري وحرمانى الصدى
تسامى وتيهى واخطرى فى غمامة
من الوهم أن يقلع دُجاها تيندى
دعيني أريد نبع الشقاء واتهى

إلى الأمل المعبود في كل مقصد
وأحيا بيوادٍ من عذاب محبب
تطيب به نفس المألود وتهتدى
وأمضى كما شاء الخيال محيرا
أروح ياخلافٍ وأغدو لموعده
مقلقل وجدانٍ مزعزعٍ خاطر
خفوق الأمانى بين ماء وجلده
بنعمة معشوقٍ ولوعة عاشق
وذلة مملوكٍ وعزة سيد
فما العيش إلا خفقة قدسية
لطلعة مشقٍ أو لمقدمٍ مسعد
وما عشقتك النفس إلا غلالة
عن الأمل المنشود في ظلمة الغد

حطّمْ تماثيلك

يا شاعر الأضلام

أشعل قناديلك

فالليل بالأظلام

يغذو أباطيلك

يا صانع الأوهام

حطّمْ تماثيلك

وادخُلْ مع الأقوام

في زحمة الدنيا

يا مشرق الأصباح

يا أفق المهبيم

قد أفسد الصباح
من طول ما أظلم
واستنتت الأشباح
في خاطري المعتم
فأبسط إلى الراح

بالنور والسلوى

ألقى بي المقدور
في قبضة الحسن
يا فرحتى بالنبور
من كؤوة السجن
كفرحة العصفور

بالماء والفضن
يا قلبى المقبور
قد آن أن تحيا !

قد أفسح السجان
ما أحكم الوجند
وأغفل القضبان
فلينجيك البعد
قد جاءه هيام
يحلوه له الورد
يا مهجاة الظمان
ما أبعد السقيا !

قد جاءهُ مشتاقٌ
يسعى إلى السرِّ
فحول الأطواق
للقدام الفِرِّ
فسبق إلى الآفاق
في قدرة النسر
يا قلبي الخفاق

إياك أن تعيا !

بادر إلى اللذات
يا قلبي الضاوي
واهزأ بما قد فات
من نسكك الغاوي

واسمع إلى أصوات

تستهض الثاوى :

ما أعجب الأموات

في جنّة الماوى !

ما أعجب الثوام

في عالم ساهر

بالرقص والأنغام

من مزهر ساحر

أغفوا لدى أصنام

من صنعة الخاطر

يا ضيعة الأيام

في الشوق والنجوى !

يا خاطري الوسان
ما أسعد النائم
لو غيب اليقظان
ترنيمه الباسم
أو خافت الركبان
بالموكب الباسم
قد أيقظوا الحرمان

من غفلة التقوى !

يا عاشق الأضياء
من غور ماضيك
وداعى الأنبياء
من غيب آتيك

في يومك الوضاء

يخبرُ يناديكُ

فادخل مع الأحياء

في زحمة الدنيا !

إلى اللّيل

« قصيدة لم تم »

بسّطتَ دجارك يا ليلُ
وخلف دجارك أحلامُ
وآمالٌ به تحلو
ولذاتٌ وآثامُ
فما بالى... لك الويلُ !
يحفُّ بكفىّ الجامُ
وفيك من الرؤى سيلُ
لمن سهرًا ومن ناموا
كأنّ في الورى نفلُ !

هُنَا فِي سَجْنِي الْعَالِي
أُقِيمُ عَلَى الْأَسَى وَحَدَى
قَرِيبًا مِنْ دُنَا الْآلِ
بَعِيدًا غَايَةَ الْبَعْدِ
هُنَا فِي مَضْجَعِ بَالِي
وَبَيْنَ حَوَائِطِ رُبْدِ
أَهْوَمُ تَحْتَ أَغْلَالِي
فَأَدْرِكُ ذَلَّةَ الْقَيْدِ
وَأَنْسَانِيهِ تَجْوَالِي

هُنَا يَا لَيْلُ يَنْجَابُ
ضُجْبَابُ الْعَيْشِ وَالنَّاسِ
وَيُفْتَحُ لِلْأَسَى بَابُ

ويفهُقُ بالشَّجَى كَامِي
ويبدو الظفرُ والنابُ
من الأوهام والياس
وحولى للـدجى غابُ
أخالِسُ فيه أنفاسي
وصوتُ الرُّعبِ صخبُ

أُنتَقُ فيكَ أحلامِي
وأتلوها على خوفِ
وأجرعُ فيكَ أوهامِي
وما فيهنَّ ما يشفي
عُلالةَ قلبي الظامِي
أقطرها من الشَّدْفِ

فتفتل في إقدامي
وتزجيني إلى حثفي
ولم أستوف أيامي

يُمْدُ جناحه الخافق
جسوراً من خيالاتي
ويضرب في سرى العاشق
إلى دنيا السموات
فيجذبه الثرى المائق
بخيطة محكم عالى
فيهوى من ذرى شاهق
إلى قاع الحقيقات
ويلعق جرحه الدافق

يُورِقُنِي الدجى القانى
بِحُمْرِ كالدجى سُفْعِ
ربائبِ أمسى الفانى
يضيقُ بلغوها ذرعى
وتنبضُ فى أشجانى
فينكرُ زفرتى سمى
وأدعو فىك إخوانى
فما يصغى سوى دمعى
وما فى الدمع سلوانى

يطنُّ الصمتُ فى أذنى
رتيبًا ما له آخر
ويصفرُ نابى اللحن

صَفِيرَ الْجُنْدِبِ السَّاهِرِ
يَغْلَفُ مَسْمَى رُدْنَى
فَيَنْفِذُ كَالرَّدَى الْجَائِرِ
وَأَغْمَضُ فِي الدَّجَى عَيْنَى
فَيَبْدُو فِي الدَّجَى سَاحِرِ
تَوَسَّطَ سَامَرَ الْجَنِّ

يُدِيرُ بِكَفِّهِ سُبْحَانَ
حَصَاها هَامُ أَصْلَالِ
وَيُرْشِفُ وَاِدِعَا قَدْحَا
يَحْرِقُ رَاحَةَ الصَّالِي
يَضِجُ كَأَنَّمَا نَبْحَا
بِهَمَمِيَّةٍ وَأَعْوَالِ

جاء

تعالى فتنة القلب
تعالى نشوة الصّاحي
أقص عليك من كربى
ومن شجوى وأتراحى

تعالى . . . فالأسى فن
إلى الأرواح سباق
عميق ذلك الحزن
وما فى الفرج أعماق

تَنَاسَى حُلْمَكَ السَّارَى
عَلَى أَضْوَاءِ مَاضِيكَ
وَهِيََا فَاشْهَدَى نَارَى
لَعَلَّ النَّارَ تَهْدِيكَ

حَيَاتَى كُلَّهَا شَفَقُ
قَصِيرِ الْعَمْرِ مَجْرُوحُ
مَضَى مَا ضَمَّهُ أَفُقُ
وَلَا طَرِبْتُ لَهُ رُوحُ

فَوَاسِيَنِي إِذَا أَنْتِ
بِوَجْدِي فِيكَ أَنْعَامِي
وَنَادِيَنِي إِذَا حَنْتِ

إلى شفيتك آلامى

إذا ما عطر أنفاسك

تلاشت فيه أنفاسى

شربتُ الفرحَ من كأسك

وعفتُ الهمَّ فى كأسى

وماذا بعد؟!

وماذا بعدُ يا قلبي !
إلى مَ نَهيم في الدربِ
وتتبع حاديَّ الرّكبِ
بلا قصدٍ نَوْمَهُ
ولا هدفٍ يُنادينا ؟ !

إلى مَ نُهْدُهُ البلوى
ونكبت أَنَّةَ الشكوى
ونجوعُ زائفَ السلوى
وقد فارت أمانينا ؟

بشباب تائه حائر
يُدارى جده العائر
ويهتف : هكذا الشاعر
فليت الفن يهجرنا
وليت الشعر يحفونا !

كفى يا قلبُ أوهاما
تقول اليوم والعاما
أنقضى العمر نؤاما
يلا عملٍ يمجّدنا
ولا ذكرٍ يواسينا !

كفى يا قلب إجحالا
فهذا العجز قد طالا
ولسنا بعد أطفالا
وما تجدى رؤى الحالم
لدى ست وعشرينا

أعجز ذلك الخدر؟
فما للعزم يبتدر
وما للصدر ينصهر
بلهفة رُوحى الحرى
وشوق ليس يألونا؟!

ألا يا ليتها تصفو
سحائبُ للمنى وكفُ
فييدو الحقُّ والزيغ
ونعرفُ بعدُ ما غدنا
نحاضرنا وماضينا

إِذْهَبِي

إِذْهَبِي !.. قَدْ سَمِعْتُ فِيكَ النُّضَالَ
وَتَهَاوَى إِلَى الْفَنَاءِ الْيَقِينِ
إِذْهَبِي ... مَا أُرِيدُ بَعْدُ جَمَالًا
تَغْتَلِي تَحْتَهُ دِمَاءُ وَطِينُ

قَدْ أَسَمْتُ الْغَرَامَ عَزَمَ أَبِيُّ
وَوَادَتُ الْغَدَاةَ حُبِّكَ حَيًّا
ثُمَّ هَلَّتْ الثَّرَى بِكَفِّ خَلِيٍّ
وَنَفَضْتُ التُّرَابَ عَنْ رَاحَتِيَا

أذهبي وارفعي الفجور لواء
تتداعى إليه حمرُ الرغابِ
وامرحي واملأى الفضاء عواء
يُشعلُ الجمرَ في عُروق الذئابِ !

جسدٌ أنتِ ... ما لديك غناء
لنفوس مسترسلات الخيالِ
وقلوب قد شفها الأعياء
وجفونٍ من الظلام ثقالِ

أنتِ كأس يشاقها عرييدُ
يتشهى في مقلتيه الخواء

مظلم الروح ... في الضلال عتيدُ
كلُّ فضل لدى هواه هباء

قد ألفتِ الشفاءَ بالراح ربي
وألفتِ الألفَ بالإثم سكرى
فاجتويتِ الجفافَ من شفتيَا
وسئمتِ المنى بكفى حيرى

قد عرفتُ الهوى الموءججَ حولا
ثم ولى وطاب عنك عزائى
لستُ آسى على غرامك لولا
لحظاتُ أضعتُ فيها إبابى

خَلْتَنِي فِيكَ بِالضَّرَاعَةِ أَجْلُو
جَوْهَرَ النَّبْلِ وَالْهَدَى وَالْخَلَّاقِ
فَإِذَا أَنْتِ لِلغَوَايَةِ ظَلُّ
وَإِذَا الشَّرُّ مِنْكَ فِي الْأَعْمَاقِ

بَيْنَ جَنْبَيْكَ . . . فِي دِمَاكِ تَلْظَتُ
شَعْلَةً لِلْفَجْورِ تَطْلُبُ وَقَدْ
لَفَحْتَ مَقْلَتَيْكَ ثُمَّ اسْتَقَرْتُ
فِي شَفَاهِ تَرُودٍ فِي النَّاسِ وَرِدَا

أَنْتِ أَدْرَكْتِ بِالغَرِيْزَةِ أَمْرِي
فَعَطْرَةُ الشَّرِّ لَا تَضِلُّ الطَّرِيقَا !

لا أرويك .. قلّ عندك قطري
وقوافي لا تذكي حريقا

اذهي قد أرت في إياي
فتمطى وحطم الأغلا
أمة أنت من صميم الإماء
اذهي .. قد أطلت فيك المقالا !

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"



0420820

Bibliotheca Alexandrina

٤٠

دار مصر للطباعة
١٥٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"